# العَدلُ في الآفاق
# رؤيةٌ إسلاميَّةٌ بيئيَّة
# في سَبيلِ تصوُّرٍ قَويم ومَسْلَكٍ رَشيد

د. عليّ محمود عكَّام*

(*) رئيس قسم أصول الدِّين بكلِّيّة الشَّريعة – جامعة حلب – الجمهورية العربية السورية.

**ملخَّصُ البَحث:**

العدلُ في المنظورِ الإسلاميِّ مفهومٌ عامٌّ، إنْ في المقام الإنسانيِّ (الاجتماعيِّ=الأنفُس)، أو في البساط الكونيِّ (البيئيِّ=الآفاق)، فالكونُ والكائناتُ عامَّةً قد قامَت به: ﴿ومَا خَلَقنَا السَّمواتِ والأَرضَ ومَا بَينَهُما إلاَّ بِالحَقِّ﴾، أي بالعدلِ.

لأجلِ هذا، تجدُ القرآنَ الكريم لا يَني يبثُّ في آيهِ ميزانَ العدلِ في الموقعَين جميعاً: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾، فالعدلُ في البساطِ البيئيِّ غايةٌ متمِّمةٌ للعدلِ في المقام الإنسانيِّ، والإنسانُ مسؤولٌ عن كلِّ ما فيه من عناصرَ وأجرامٍ، وإذا كان الله قد طبعَ ذلك البساطَ البيئيَّ على سنَّةِ تسخيرِه للإنسان فإنَّ الامتدادَ الغائيَّ لهذه السنَّةِ يَعني التعاملَ والتَّفاعلَ معَها بعدلٍ، أيْ:

١- بما يدمجُها في الغايةِ الكونيَّة الموحَّدة من حيثُ الهدفُ، فيكون غرضُ البحثِ هُنا عرضَ أصولٍ إسلاميَّة لتصوُّرٍ بيئيٍّ قَويمٍ.

٢- بما يستغلُّها بالطُّرق العلميَّةِ الصَّحيحةِ من حيثُ الأسلوبُ، فيكون غرضُ البحثِ هُنا عرضَ أصولٍ إسلاميَّة لمَسلكٍ بيئيٍّ رشيدٍ.

**المقدمة:**

العَدْلُ في المنظُورِ الإسْلاميِّ مفهُومٌ عَامٌّ، وأعنِي أنَّ لهُ تجلِّياتٍ في كُلِّ مواقِعِ الحركَةِ الإنسَانيَّةِ عَلى السَّواء، دونَما تَخصيصٍ ودُونما تَطفيف؛ إنْ في المقَامِ الإنسَانيِّ الاجتماعيِّ (الأنفُس)، أو في البسَاط الكَونيِّ البيئِيِّ (الآفاق)، فالكَونُ والكائناتُ عامَّةً قدْ قامَتْ بهِ: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (الأحقَاف:٣)، أَيْ بالعَدلِ.

لأَجلِ هذا، تجدُ القرآنَ الكريمَ لا يَنِي يَبُثُّ في آيِهِ مِيزَانَ العَدلِ ودلائلَهُ التامَّةَ وأصُولَه الكَاملَةَ وأحكامَهُ السَّديدةَ في المَوقِعَين جميعَاً: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(فُصِّلت:٥٣)، ومرادُنا في هذا البحثِ مقاربةٌ للرؤيةِ الإسلاميَّة على مستوَى التَّصوُّر والسُّلوكِ معاً حيالَ الآفاق خُصوصاً، من خلالِ استجلاءِ معالمِ العَدلِ والتَّوازنِ المطلوبِ حيالَ هذا البساطِ البيئِيِّ الذي عبرَّ عنه القرآنُ بـ(الآفاق)، فالعَدْلُ في البسَاطِ البيئِيِّ غايَةٌ مُتمِّمةٌ للعَدلِ في المقَامِ الإنسَانيِّ، وذاك أنَّ الأولَ حَاوٍ للثَّاني ومُشتَملٌ علَيه، وأعنِي أنَّ البيئةَ في المنظُورِ الإسلاميِّ ظَرفُ الحضَارةِ الإنسَانيَّة، حَيثُ تَنْشأُ وحَيثُ تَحيَى، وإذا كانَت الحضَارةُ المنشُودةُ في المنظُورِ الإسلاميِّ ذاتَ بُعدٍ كونيٍّ مُطلَقٍ فإنَّ ظرفَهَا المكانيَّ -تبَعَاً لذلكَ- يَمتدُّ ليَطَالَ البسَاطَ البيئيَّ بأجمَعه، بمَا فيهِ منْ عناصرَ وأجرامٍ سُفليَّةٍ وعُلويَّةٍ، أرضيَّةٍ وسَماويَّة، ومِنْ ثمَّ، فَهيَ مَسؤولةٌ عنْ ذلكَ كلِّه مَسؤوليةً شَاملةً دونَما تحيُّزٍ إلى ناحيةٍ دونَ أخرى.

هَذه المَسؤوليَّةُ تَعنِي بَادِئَ بَدءٍ أنْ يعِيَ الإنسَانُ أنَّه جُزءٌ مِنْ تلكَ البيئَةِ الكُبرَى، إذْ هيَ مَيدانُ شُخُوصِه، ومجلَى آثارِهِ وعلُومِه، وتُرجُمانُ إبداعَاتِه وعَزائمِه، بَلْ هيَ لا تنفَكُّ عنهُ في كُلِّ أطْوارِ وجُودِه، فهيَ معَهْ وقبلَهُ وبعْدَهُ وفيه، ومِنْ هُنا، جَاءَ تكليفُهُ بإحقَاقِ العَدْلِ في ذلكَ البسَاطِ البيئيِّ، بمَعنَى أنْ يَرعَى مَا فيهِ منْ تَوازنٍ بينَ دَرءِ المفاسدِ وجَلْبِ المصَالحِ، علَى أسَاسٍ من مقولاتِ الدِّين في هذَا السِّياق، عَلَى اعتبَارِ أنَّ تلك المقولاتِ الثَّابتةَ هيَ مجلَى (الحَقِّ) الذي يُكوِّنُ مادَّةَ العَدْلِ في كلِّ مُستوَياتِ الحضَارَة.

وإذا كانَ اللهُ قَد طبَعَ ذلكَ البسَاطَ البيئِيَّ علَى سُنَّةِ تَسْخِيره للإنسَان، فإنَّ الامتدادَ الغَائيَّ لهذِه السُّنةِ يَعنِي التَّعامُلَ والتَّفاعُلَ معَها بعَدْل، أيْ:

١- بما يُدْمِجُها في الغايَةِ الكونيَّةِ المُوحَّدَةِ مِنْ حَيْثُ الهَدفُ، فيَكونَ غرضُ البحثِ ههُنا عرضَ أُصولٍ إسلاميَّةٍ لتصوُّرٍ بيئيٍّ قويم.

٢- بِمَا يَستغلُّهَا بالطُّرقِ العلميَّةِ الصَّحيحَةِ النَّافعَةِ منْ حَيْثُ الأسلوبُ، فيكونَ غرضُ البحثِ ههُنا عرضَ أصولٍ إسلاميَّةٍ لمَسلكٍ بيئيٍّ رشيد.

وفي سياق الكلام على الدِّراساتِ السَّابقة، فلا يخفى أنَّ قضايا البيئة متناوَلةٌ بالبحثِ في دراساتٍ أُخرى، غيرَ أنيَّ لَم أقِفْ -في حُدودِ ما أحاطَ به اطِّلاعي- على دراسةٍ مفردةٍ قائمةٍ برأسِها من الوِجهة التي جاءَ عليها هذا البحثُ، على أنِّي لا أُعمِّم حكمَ الافتقادِ في هذا البابِ، فعدمُ الوجدان لا يقتضي عدمَ الوجودِ كما يُقالُ.

أمَّا المنهجُ المتَّبعُ في هذا البحثُ فهو (منهجُ التدبُّر القرآني)، وأعني به في لُغةِ البحوثِ اليوم تفهُّماً للآياتِ ذواتِ الصِّلة بمحلِّ البحث، على نحوِ الاستقراءِ والاستنتاج، بما يدلاَّن عليه من:

١- تحليلٍ لغويٍّ ومعرفيٍّ للنُّصوصِ، بتَوسُّلِ العربيَّةِ، وصَحيحِ الحديثِ والأَثرِ[١]، وأُصُولِ الاستِنبَاطِ.

٢- إعادةِ تركيبٍ للمعطَياتِ والمعاني في مَسيلِ بحثٍ منطقيِّ الترتُّب والإفضاءِ بين مسائله. وأنا -في هذا- مُوقنٌ بأنَّ القُرآنَ كلٌّ بيانيٌّ مُكتَمِل، لَم يدَّعِ أَمراً إلاَّ وكانَ لهُ علَيه مِن ذاتِه دَليلٌ، أَي مِن داخلِه، بمَا يَستَغنِي بِهِ عن دلائلَ خَارِجةٍ وموضوعاتٍ مُضافَة[٢]، علَى أنَّ ذلكَ ليسَ يُغنِي عَن بيانِ النبوَّةِ وبيانِ العربيَّة، فهُما منَ القُرآنِ كالشَّيءِ الواحِد.

وعليه، فقد هاءَت لي خطَّةُ البحثِ على النَّحو الآتي في مَبحثَين:

---

(١) وما كانَ يَنزِلُ عَن رُتبةِ الصَّحيح فكنتُ أَسوقُهُ لا على سبيلِ الإفرادِ في تَأصيلِ مسألَةٍ ما، بلْ على سبيلِ الاتباعِ والإدراجِ في أَصلٍ صحيحٍ معَ التَّنبيهِ على ذلكَ حيثُ يَلْزَم، جرياً على سَنَنِ الرِّوايةِ المُقرَّرة في علومِ الحديث.

(٢) انظُر: الإتقَان: لجلال الدِّين عبدِ الرَّحمن بن أَبي بكر السُّيوطي (ت:٩١١م) ٢/٤٦٧ و٤٨٨، تَحقيق: سَعيد المندُوب، بيرُوت، دار الفِكر، ١٩٩٦م.

**المبحث الأوَّل: أصُولٌ إسلاميَّةٌ لتَصوُّرٍ بيئِيٍّ قَويم: وفيه مطلبان:**

– المطلب الأوَّل: المحدِّدات المنهجيَّة لأصولِ هذا التَّصوُّر.

– المطلبُ الثَّاني: المقوِّمات النَّظريَّة لهذا التصوُّر.

**المبحث الثَّاني: أصُولٌ إسلاميَّةٌ لمَسلَكٍ بيئِيٍّ رَشيد: وفيه مطلبان:**

– المطلبُ الأوَّل: المسلَكُ الغاشِم المرفوض (مسلَك القَهر أو العنف).

– المطلبُ الثَّاني: المَسلكُ الرَّشيدُ المطلوب (الرِّفق والارتفَاق).

**الخاتمة: وفيها النَّتائجُ وصفوةُ القَول.**

وأَنا في هذا البَحثِ أقولُ ولكنْ لا أقطَعُ القولَ، إذْ لا يَحسُنُ القطعُ بباحثٍ، ولا سيَّما في القضَايا التي تَزدادُ عُمقاً بِما تَزدادُ به شَرحاً، ولِذا فأَنا أَعرِضُ الكلامَ عَرضاً دونَما تحكُّم، وقد حملَني علَى إيرادِه حُسنُ النيَّةِ وخُلوصُ الطَّويَّة، للنَّاسِ عامَّةً، وللمؤمنينَ خاصَّةً، ولا آمَنُ علَى نَفسي الزَّلَلَ فيما كتَبتُ، ولكنْ رجائي إلَى القارئِ الكريمِ أنْ يأخذَ لنفسِه ما كانَ صواباً، وأنْ يَدَعَ لي ما رآهُ خطأً، وأَحسَبُني قد أَنصَفتُه بِهذا، فليُنصِفنِي كما أَنصَفتُ. واللهُ المُستعانُ وإلَيه المآبُ.

## المبحث الأوَّل

## أصُولٌ إسلاميَّةٌ لتَصوُّرٍ بيئِيٍّ قَويم[1]

### تمهيدٌ:

مفهُومُ البِسَاطِ البيئِيِّ –فِيمَا أعنِي– مفهُومٌ واسِعٌ[2] يَصدُقُ عَلَى كلِّ عنَاصرِ الكَونِ ومفَاريدِه، أسُسِهَا وفُروعِهَا، وأقصِدُ العنَاصرَ الأربعَةَ (المَاءَ والهَواءَ والنُّورَ أو النَّارَ والترُّابَ)[3]، وما تفرَّعَ عنهَا مِنْ كائناتٍ حيَّةٍ أو يُرَى أنَّها غيرُ حيَّة.

وفي القُرآنِ الكَريمِ تَصريحٌ وتَعريضٌ بتِلكَ العنَاصرِ الأصْليَّةِ ومظاهِرِهَا ووظائِفِها وتسخيرِها للإنسانِ بنَحوٍ وافرٍ وجَليٍّ، كَذلكَ تَرَى في القُرآن ذكراً لأصنَافِ المخلوقَاتِ وتنويهاً بأضْرابِ الكائنَاتِ بِصُورة لافتَةٍ ومَادَّةٍ غزيرَة، حتَّى لقَدْ جاءَتْ بعضُ سُوَرِه مُسمَّاةً بأسماءِ بعضِ تلكَ الكَائنَات:

١. ففِي مَيدَانِ الظَّواهرِ الفلَكيَّةِ والجويَّة: تَجدُ سُوَرَ (البُروج، والنَّجم، والقمَر، والنُّور، والرَّعد، والذَّاريات، والشَّمس، والطَّارق، والمُرسَلات –علَى أنَّها الرِّياح[4]–،

---

(١) القويمُ في مَقصدي هاهُنا مشتَقٌّ من القَوام أي العَدل، قال تعالَى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفُرقان:٦٧).

(٢) البيئَة (Environment) لَفظةٌ عربيةٌ صَميمَة، وهي هَيئةٌ أو اسمٌ مِنْ قولكَ: أباءَهُ منزلاً وبوَّأهُ إيَّاهُ وبوَّأهُ فيهِ وبوَّأهُ لهُ، بمَعنى هيَّأهُ لهُ وأنزلهُ ومكَّنَ لهُ فيه. وتبوَّأ المكانَ حلَّهُ، والبيئةُ والباءَةُ والمَباءَةُ المنزلُ، وتبوَّأ فلانٌ منزلاً اتَّخذهُ، قالَ الله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ (الأعراف:٧٤)، ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾(الحشر:٩)، ويُحتَملُ أن يكونَ المُرادُ في الآية حالَةَ الإيمانِ أو مكانَ الإيمان أو بلدَ الإيمان علَى المَجاز. انظُر: مادَّة (بوأ)، في: العين: ٤/ ١٩٦، والصِّحاح: ١/ ٥٧، واللِّسان: ١/ ٣٦. وفي العلُوم الإنسَانيَّة والكَونيَّة اليَوم علمٌ يَدرسُ العلائقَ بين الميدانَيْن، يُسمَّى: (الإنثروبُولُوجيا البيئيَّة Ecological anthropology) أو(الإيكولوجيا الثقافية Cultural ecology)، ويُعنَى بمُحاوَلة تقديم تفسيرَات ماديَّة وقوانينَ بيئيَّة للمُجتمَع الإنسَانيِّ والثَّقافة الإنسَانيَّة، كنتاج للتكيُّف والمُواءَمة معَ ظُروف بيئةٍ مُعيَّنة، وبعبارة مُختصرة، يُعنَى بدراسة وُجوه التفاعُل بينَ البيئة والإنسان على التَّبادُل. انظُر: موسُوعة علم الإنسَان: شارلوت سيمور سميث: ص١٨٩.

(٣) يقول الرَّازي: (إنَّ المُرادَ بآيات الآفاق الآياتُ الفَلَكيَّةُ والكَوكَبيَّةُ وآياتُ اللَّيل والنَّهار وآياتُ الأَضواء والإظلال والظُّلُمات وآياتُ عالَم العَناصر الْأَرْبَعَة وَآيَاتُ المواليد الثَّلاثة – أي المعادن والنَّبات والحيوان–). تفسير الرَّازي: ٢٧/ ٥٧٣.

(٤) فيما أُثِرَ عن ابنِ مسعودٍ وأبي هريرةَ وعليٍّ وغيرِهم، وقيل: إنَّها الملائكة، فيما أُثِرَ عن ابنِ عبَّاس. انظُر:=

والتَّكوير، والانفطَار، والانشقَاق).

٢. وفي مَيدَانِ الظَّواهرِ الزَّمانيَّة: تَجدُ (العَصْر، والفَجْر، والفلَق، والضُّحَى، واللَّيْل).

٣. وفي مَيدَانِ الظَّواهرِ المكَانيَّةِ: تَجدُ سُوَرَ (الحِجْرِ-ديارِ ثَمُود-، والأحقَافِ -ديَارِ عَادٍ، وسَبَأ -ديارِ بلقِيس- ، والطُّورِ -في سَيْناءَ-، والكَهْفِ، والبَلَد).

٤. وفي مَيدَانِ الظَّواهِر الأرضيَّةِ والعنَاصرِ والمعَادِن والأدَوات: تَجدُ (الزَّلزَلة، والدُّخان، والحَديد، والمَسَد، والقلَم).

٥. وفي مَيدَانِ الأحيَاءِ والنَّباتِ: تَجدُ (البقَرَة، والأنعَام، والنَّحل، والنَّمل، والعَنكبُوت، والفِيل، والعادِيات، والتِّين، والجِنِّ)، كما تجدُ فيمَا يخصُّ الحيَاةَ البشَريَّة: (النِّساء، والإنسَان، والعلَق، والتَّكاثُر، والنَّاس).

فضلاً عَمَّا جَاءَ في أثناءِ الآيَاتِ مِنْ مُفرداتٍ ووقائِعَ كونيَّةٍ وبيئيَّةٍ يعسُرُ عَدُّها.

ومَا أرُومُ قولَهُ هُنا: أنَّ ذِكرَ أمثالِ تِلكَ الموجُودات والحوادِث قَد سيقَ -منْ غيرِ مريَةٍ- لغايَاتٍ بليغَةٍ، لعلَّ منهَا توسيعَ حُدودِ التَّصوُّرِ البيئِيِّ، وتأصيلَ ذلكَ في وَعي المُخاطَب، وتَعميقَ إحسَاسِه بالموجُوداتِ مِنْ حولِه، وتمتينَ إيلافِه بهَا، وإحداثَ ديناميَّةٍ (علاقةٍ تبادليَّة) تشريعيَّةٍ بينَهُ وبينهَا فوقَ الدِّياليَّةِ الطَّبيعيَّةِ القائمةِ بطَبيعةِ الحَال.

ولعلَّ ممَّا يُوَطِّئُ بَينَ يَديك هَذهِ الغايَاتِ أنْ تُطالعَكَ نُصُوصٌ في القُرآنِ والسُّنَّةِ بمَا يُقيمُ في وَعيكَ شُعُوراً حقيقياً بحياةِ الموجُوداتِ منْ حَولِك قاطبةً، حتَّى مَا يندَرجُ منهَا في مُسَمَّى (الجمَادات)، وفي ذلكَ -ولا شَكَّ- حَافزٌ عقَديٌّ وحَضَاريٌّ عَلَى احترَامِهَا ورعايتِهَا بمِثْلِ مَا يَستَحِقُّه الإنسَانُ منْ رِعايةٍ واحترَام.

فأنتَ تَجدُ في القُرآنِ مَثلاً، قولَهُ تعَالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ (الإسرَاء:٤٤)، وقولَهُ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ (سَبأ:١٠) ، وقولَهُ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ (الدُّخان:٢٩)، وقولَهُ: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (البقرَة:٧٤)،

=الدرّ المنثور: للسُّيوطي: ٨/ ٣٨١.

وقولَهُ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (الحَشر: ٢١)، وقولَهُ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ (النَّمل: ٨٢).

وفي السُّنَّةِ المطهَّرةِ أيضاً كثيرٌ مِنْ نَظائِرِ تلكَ المشاهِد، ومِن جُملَتِها:

١) أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَستقبلُ الهِلالَ ببَشَاشَةٍ، ويُخاطِبُه: (اللَّهمَّ أهلَّهُ علَينا بالأمنِ -وفي روايةٍ باليُمنِ- والإيمانِ والسَّلامةِ والإسلامِ، ربِّي وربُّك الله)، وكانَ يأمُرُ بِأنْ يُقالَ بمثلِ ذلك[١].

٢) كانَ النَّبيُّ ﷺ يتلقَّى قطَراتِ الغَيْثِ بابتِهَاجٍ، وكَانَ يَحسِرُ ثوبَهُ عنْ ظَهرِه حتَّى يُصيبَهُ، ويقولُ: (إنَّهُ حديثُ عَهدٍ بربِّهِ تعالَى)[٢].

٣) كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا غَزَا أو سَافرَ فأدركَهُ اللَّيلُ خاطَبَ الأرضَ: (يَا أرضُ، ربِّي وربُّكِ الله، أعوذُ باللهِ من شرِّكِ وشرِّ ما فيكِ وشرِّ ما خلقَ فيكِ ومنْ شرِّ ما يَدِبُّ علَيكِ)[٣].

٤) كَانَ النَّبيُّ ﷺ يقُولُ عَنْ أُحُد: (جبَلٌ -أو جُبَيلٌ- يُحبُّنَا ونحبُّه)[٤]، ويُثبِّتُه إذْ يعلُوهُ لِما يَرى من رَجَفانِه قائلاً: (اُثبُتْ أُحُد)[٥].

٥) كَانَ النَّبيُّ ﷺ يقولُ عَنِ النَّخْل: (أَكرِمُوا عمَّتَكُمُ النَّخْلَة)[٦].

٦) كَانَ النَّبيُّ ﷺ يقُولُ: (إنِّي لأَعرِفُ حَجَراً بِمكَّةَ كَانَ يُسَلِّم عَلَيَّ قبلَ أنْ أُبعَثَ -أيْ قبلَ

---

(١) أَخرجهُ التِّرمذيُّ (٣٤٥١)، وأحمد (١٣٩٧)، والحاكم في المُستدرك (٧٧٦٧)،والدَّارميُّ (١٦٨٨)، وابنُ أبي شيبة (٩٧٣٠)، وغيرُهم.

(٢) أَخرجهُ مسلمٌ (٨٩٨).

(٣) أَخرجهُ أبو داود (٢٦٠٣)، والنَّسائي (١٠٣٩٨)، الحاكمُ في المُستَدرك (١٦٣٩)، وابنُ خزيمةَ في صَحيحِه (٢٥٧٢)، وغيرُهم.

(٤) أَخرجهُ البُخاريُّ (١٤١١)، ومُسلِمٌ (١٣٦٥).

(٥) أَخرجهُ البُخاريُّ (٣٤٧٢).

(٦) وفيه: (فَإنَّها خُلِقَتْ منَ الطِّينِ الذي خُلِقَ منهُ آدَم). أَخرجهُ أبو يعلَى في المُسنَد (٤٥٥)، وانظُر: مجمع الزَّوائد: ٥ / ٣٩، والحديثُ ضَعيف. وشُبِّهَتْ النَّخلةُ بالمُؤمِن كما في الصَّحيحِ، انظُر مثلاً: صَحيح مُسلِم (٢٨١١)، وفيه غُنيةٌ في هذا المقامِ لِصحَّته.

نبوَّته ﷺ، إنِّي لأَعرِفُهُ الآنَ)[1].

٧) كانَ النبيُّ ﷺ بادئَ أَمرِهِ إذا خطَبَ يقومُ إلى جِذعٍ منْ جُذوعِ المَسجِد، فلمَّا صُنِعَ لهُ المِنبَرُ وكانَ علَيهِ، يقولُ جَابرٌ راوي الحَديث: فسَمِعنَا لذَلكَ الجِذعِ صَوتاً كَصَوتِ العِشَارِ، حتَّى جَاءَ النَّبيُّ ﷺ فوضَعَ يدَهُ علَيهَا فسَكَنَتْ، وفي روايةٍ: فصَاحَتْ النَّخلةُ صِيَاحَ الصَّبيِّ، ثمَّ نزلَ النَّبيُّ ﷺ فضمَّها إليهِ تَئِنُّ أنينَ الصَّبيِّ الذي يُسَكَّنُ، وقالَ: (كانَتْ تَبكِي علَى مَا كانَتْ تَسْمَعُ منَ الذِّكْرِ عندَها)[2].

٨) عَنْ عليِّ بنِ أبي طَالبٍ ﷺ قالَ: كنتُ معَ النَّبيِّ ﷺ بمكَّة، فخَرَجْنا في بَعضِ نَواحيهَا، فمَا اسْتقبَلَهُ جبَلٌ ولا شَجَرٌ إلاَّ وهُوَ يقُولُ: السَّلامُ عليكَ يا رَسُولَ الله[3].

٩) عَنِ ابنِ مَسعودٍ ﷺ أنَّهُ قالَ: (ولَقَد كُنَّا نسمَعُ تسبيحَ الطَّعَام وهوَ يُؤكَلُ)[4].

١٠) في الصَّحيح: قَرصَتْ نملَةٌ نبيًّا منَ الأنبيَاء، فأمرَ بقَريةِ النَّملِ فأُحرِقَتْ، فأوحَى اللهُ إليهِ: (أنْ قَرَصَتْكَ نملَةٌ أَحرَقْتَ -أو أَهْلَكْتَ- أمَّةً منَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ؟!)[5].

وشَواهِدُ هَذا البَابِ جدُّ وافِرَة، بل إنَّ القُرآنَ لَيُمعِنُ في عَقْدِ وشَائجِ التَّواصُلِ بينَ النَّاسِ وسَائرِ الكَائنَات بإثبَاتِ المثْليَّةِ والتَّشَابُه فيمَا بينَهمَا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (الأنعَام:٣٨).

وهكَذا، فإنَّ الوَعيَ البيئيَّ في مثْلِ هَذا التَّصوُّرِ الكَونيِّ الوَاعِبِ، وإدراكَ الترَّابُطِ

---

(١) أَخرجهُ مُسلم (٢٢٧٧).

(٢) والرِّوايتان عندَ البخاريِّ في الصَّحيح (٣٣٩١و٣٣٩٢)، والعِشار: جمعُ عُشَراء، وهي النَّاقةُ التي انتهتْ في حَملها إلى عشرة أشهُر. وفي روايات أُخرى: (خارَتْ كخُوار الثَّور) أو (اضطَّربتْ تلك السَّارية كحنين النَّاقة الخَلوج أو الحَلُوج)، وهيَ النَّاقةُ التي انتُزِعَ منها ولدُها. وللحديث رواياتٌ أُخرى مُتقاربةُ الألفاظ. انظُر: فَتح الباري: ٦/ ٦٠٣، وعُمدة القاري: ١٦/ ١٢٩.

(٣) أَخرجهُ التِّرمذيُّ في السُّنن (٣٦٢٦)، والحاكم (٤٢٣٨)، والدّارميُّ في سُننه (٢١).

(٤) أَخرجهُ البُخاريُّ في الصَّحيح (٣٣٨٦).

(٥) أَخرجهُ البُخاريُّ (٢٨٥٦)، ومُسلِمٌ (٢٢٤١). والنَّبيُّ قيلَ: هو موسَى علَيهِ السَّلام، وقيل: غيرُه. انظُر: فتح الباري: لابن حجر: ١/ ٢٩٢. و(أنْ) بفَتحِ الهمزةِ وبهَمزةِ الاستِفهامِ مقدَّرةً ومَلفوظَةً، وجاءَ في روايةٍ لمُسلِمٍ: (أفي أنْ).

الحقيقيِّ بينَ أجزاءِ الكونِ بأسرِه، لَهوَ -مِنْ غَيرِ مَيْنٍ- شُعبةٌ مِنْ شُعَبِ الإيمَان باللهِ تعَالَى، وفَرعٌ لازمٌ عَنِ التَّسليمِ لهُ بمُطلَقِ الإيجَادِ والإمدَاد: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفُرقان:٢)، ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ (لُقمان:١١).

## المطلبُ الأوَّل

## المحدِّداتُ المنهجيَّة لأُصولِ هذا التصوُّر

وفي مُحاوَلَةٍ لتبَينُّ أبرَزِ أصُولِ هَذا التَّصوُّرِ البيئيِّ في المَنظُورِ الإسلاميِّ، تَجِدُ القُرآنَ الكَريمَ يجعَلُ مَدَارَ ذلكَ عَلَى مُحدِّداتٍ مَنهجيَّةٍ، أهمُّها -فيمَا أحْسِبُ- ثلاثَةُ مُحدِّداتٍ رَئيسَةٍ، مُتداخِلَةٍ ومُتكَامِلَةٍ، يكثُرُ دورانُها في مَا سِيقَ لمثْلِ هَذا الموضُوعِ مِنْ آياتٍ، وهيَ: (الحَقُّ، والتَّقديرُ، والحِكمَة):

١- أمَّا الحقُّ: فهُو جُملةُ السُّنَنِ الكَونيَّةِ والشرَّائعِ التَّكليفيَّةِ الَّتي أقَامَ اللهُ عليهَا الوُجُودَ بأكمَلِه، وركزَهَا فيهِ، ثمَّ أمَرَ الإنسَانَ برعايَتِهَا، ونهَاهُ عَنْ إفسَادِها، وهو مقتضى العَدل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾(الحِجْر:٨٥)، وجَاءَ في السُّنَّة: (بِالحَقِّ قامَتْ السَّمواتُ والأَرضُ)[1].

٢- وأمَّا التَّقديرُ: فهوَ خَلْقُ مفَاريدِ الوجُودِ وفقَ عِلمٍ مُحيطٍ ونظَامٍ تامٍّ وحُسْبَانٍ دقيقٍ -كمّاً وكيفاً، مَنشَأً ومآلاً-، فَلا تُجاوزُه ولا تَقصُرُ عنهُ، ولا تزيدُ ولا تَنقُص: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ (يُونُس:٦١)، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفُرقَان:٢)، فالكُلُّ مُنسَجِمٌ في نظَامٍ دَقيقٍ وتَوازنٍ بَديعٍ، لا تقَعُ في أدقِّ تفاصيلِه عَلَى شَائبةِ اعوجَاجٍ أو نُفاثَةِ اخْتلَالٍ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن

(١) وفي روايةٍ بالعَدلِ، وهي عبارةٌ قالَها يَهودُ خيبر أمامَ النَّبيِّ ﷺ، فتلقَّاها من غَير نكير، فكانَ ذلك منهُ عَلى سَبيلِ الإقرار، وروِيَ أنَّها قيلَت أمامَ ابنِ رواحَة حينَ بعثَهُ النَّبيُّ إليهم ليأخذَ منهم فيءَ نخيلِ خيبَر. انظُر: صَحيح ابن حبَّان (٥١٩٩)، وسُنن البيهقيِّ الكُبرى (١١٤٠)، وسُنن أبي داود (٣٤١٠)، وسُنن ابن ماجه (١٨٢٠)، ومجمَع الزَّوائد: ٣/ ٧٦.

فُطُورٍ﴾(الملك:٣)، كما لا تظفرُ بأدنى شاهدٍ على القولِ بالمُصادَفةِ والاتِّفاق: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النَّمل:٨٨)، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (السَّجدة:٧)، ولَولا هَذا التَّقديرُ والإتقانُ والإحسانُ لاختلَّتْ مصالِحُ الأكوانِ.

٣- وأمَّا الحِكمَةُ: فكامنةٌ في إيجادِ الكَونِ بحسَبِ مُقتضَياتِ الحقِّ والتَّقديرِ الإلهيَّيْنِ، علَى نَحوٍ بَالغٍ يُعنَى برَسْمِ غايةٍ جلَيلةٍ ومُعتَبَرةٍ لكُلِّ كَائنٍ حيثُ هُو، يجري من بعدِها توجيهُهُ تلقاءَهَا جَبراً وتخييراً: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ (الرَّعد:١٥)، ثُمَّ تُرصَفُ تلكَ الغاياتُ المتنوِّعةُ في مَشهَدٍ بيئيٍّ خَلاَّقٍ ومُحكَمٍ وحَكيم، لا مجَالَ فيهِ لزَعمِ العبَثِ أو الإفرَاطِ أو التَّفريط: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن[1] كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبيَاء:١٦-١٧).

منْ أجْلِ ذلكَ، وحرصاً علَى إثَارةِ هَذا المَعنَى علَى الدَّوام، لا يَفتأُ القُرآنُ الكريمُ يُذيِّلُ آيَهُ في هَذا الشَّأنِ باسمِ الله (الحَكيم)، تَنبيهاً علَى مَا تَندَمِجُ عليهِ صَنعةُ البَاري منْ حكمَةٍ بالغة، جَليَّةٍ تَارةً وخفيَّةٍ أخرَى، عَلَّ أربَابَ النُّهَى يفطُنُونَ لَها، فيُسَخِّروا في سَبيلِها الجُهُودَ الحَضَاريَّةَ، استنباطاً وفقهاً ورعايَةً، ولا ينتَهي حتَّى يَقرَعَ مسَامِعَهُم باستفهَامٍ إنكَاريٍّ يُجلِّي لَهُم تلكَ الحقيقةَ في سُفُور: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾(التِّين:٨)، بلَى.

تأسيساً علَى هَذهِ الثُّلاثيَّةِ الاعتقاديَّةِ لاستيلادِ تَصوُّرٍ بيئيٍّ مِنْ رَحِمِ الإيمَانِ بالخَالقِ المَعبودِ، يَجيءُ العَدْلُ في الآفاقِ أو في البِسَاطِ البيئيِّ تكليفاً دينياً ومَسؤُوليةً خلُقيَّةً يتحمَّلُهَا الإنسَانُ تُجاهَ بيئَتِه، بكُلِّ ما فيهَا منْ كائناتٍ وأحيَاء، وهوَ الواجبُ الشرَّعيُّ الأوحَدُ والأليَقُ بأيِّ حضَارةٍ إنسَانيَّةٍ راقيَة[2].

---

(١) (إنْ) هَاهُنا نافيةٌ لا شرطيَّة، فالفعلُ الإلهيُّ منزَّهٌ عن اللَّهو والعبَثِ واللَّعبِ حتَّى عَلى سَبيلِ الافتراضِ الجدَلي، إذْ ليسَ لذلكَ أدنَى مُسوِّغٍ عقليٍّ أو طبيعيٍّ، كما ليسَ لهُ داعٍ لُغويٌّ.

(٢) وهوَ مَا يُعبرَّ عنهُ في المذاهبِ الفلسَفيَّةِ عادةً بـ(احترامِ الطَّبيعة). انظُر: الفلسَفة البيئيَّة: تَحرير: مايكل زيمرمان: ص١١١فما بعدَها.

أمَّا مَنشَأُ هَذا الوَاجِبِ فهُوَ احترامُ الكائنَاتِ التي تُشاركُنا الوُجُودَ، والنَّظرُ إليهَا كمَوجُوداتٍ ذاتِ قيمَةٍ ذاتيَّةٍ، لهَا وجُودُهَا المُستقلُّ والمُعتَبَرُ، كمَا الأشخَاصُ، مِنْ حيثُ هيَ خلقٌ مِنْ خَلقِ الله تعَالى، فمَنْ شَهِدَ الصَّانِعَ لَمْ يَعبِ الصَّنعَة، أو كما قيلَ:

إذا مَا رَأيْتَ اللهَ للكُلِّ خَالقَاً ... رَأيْتَ جَمِيعَ الكَائنَاتِ مِلَاحَاً
وإن لاَّ تَرَى إلاَّ مَظَاهِرَ صُنْعِهِ ... وَهِمْتَ فَصيرَّتَ الحِسَانَ قباحاً [1]

والمقصُودُ أنْ تلحَظَ أثرَ أوصَافِ الصَّانعِ في الصَّنعَة، فترَى الكَائنَاتِ مِنْ منظُورِ الإيمانِ بمُوجِدِهَا الحَكيم، لتُقلِّبَ طَرْفَكَ في وُجُوهِ حِكْمَتِه فيهَا، وتتفكَّرَ في عجَائبِ تَقديرِه إيَّاها، سَواءٌ مِنْ حيثُ مَا خُلِقَتْ لهُ أو مِنْ حيثُ مَا خُلِقَ لهَا، لتقولَ في إزاءِ ذلكَ كلِّه: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾(آل عمرَان: ١٩١)، وأنتَ تَعني بقَولِكَ: (هذَا) كلَّ موجودٍ يَصدُقُ علَيهِ اسمُ الإشَارَة، وفي نفسِكَ حيالَهُ ضربٌ منَ التَّعظيم[2] والإكبارِ.

## المطلبُ الثَّاني

## المقوِّماتُ النَّظريَّة لهذا التَّصوُّر

هَذا النَّمطُ من التصوُّر أو التَّفكُّرِ البيئِيِّ لهُ جُملةٌ منَ المُقوِّماتِ النَّظريَّة، هاكَ أبرَزَها:

١) عُضويَّةُ الإنسَانِ في مُجتمَعِ الحيَاة: ومَعناهُ أنَّ الإنسَانَ في بيئَته جُزءٌ مِنْ كُلٍّ، فهوَ كغَيره منَ الكَائنَاتِ الحيَّة بَعضٌ مِنْ أبعَاضِ مُجتمَعِ الحيَاةِ، يُشَاركُها الوجودَ ويُعاطيهَا أسبابَهُ، ويُماثلُهَا ويُقايسُها بجَامعِ علَّةِ (المخلوقيَّةِ لله تعَالى)[3]: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعَام: ٣٨).

---

(١) يُنسَبُ البيتانِ للشَّيخ شهابِ الدِّين أحمد بن محمَّد الأنطاكيِّ الحلَبيِّ الحنفيِّ المعرُوف (بابن جُمارَة) (ت: ٩٥٣هـ)، وقدْ أوردناهُما هَاهُنا بشَيءٍ منَ التصرُّف. انظُر: شذرات الذَّهب: عبدالحيِّ بن أحمد بن محمَّد (ابن العماد الحنبليّ): ٨/ ٣٩٤

(٢) في اسم الإشَارة (هذا) معنًى ظاهرٌ منَ التَّعجُّب والتَّعظيم، علَى غرارِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾(الإسرَاء: ٩)، وانظُر: تَفسير الرَّازي: ٩/ ١١٣.

(٣) بغضِّ الطَّرفِ عمَّا دارَ منْ خلافٍ حولَ تقدُّمِ الإنسَانِ أو تأخُّرِه عنْ سائرِ الكَائناتِ في الظُّهورِ على مَسرَحِ الحيَاة.

٢) التَّتامُّ البيئيُّ في مُجتمَع الحيَاة : مُجتمَعُ الحيَاة هَذا كُلٌّ والأحيَاءُ والكائنَاتُ فيه أجْزاءٌ، وبَينهُما تواصُلٌ وَثيقٌ، فَما يُصيبُ الكُلَّ يَطالُ الجُزءَ، ومَا يَعرُو الجُزءَ يُؤثِّرُ في الكُلِّ. وقَصْدي أنَّ لِكُلِّ كَائنٍ عَلَى حِدَته مَوقعاً حيوياً مُقدَّراً يُتمِّمُ به دائرةً منْ دوائرِ الحيَاة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمَر:٤٩)، وأنَّ كُلَّ الدَّوائرِ في النِّهايَة تَنتظمُ في سِلْسلَةٍ حيويَّةٍ مُتَّصلةٍ تامَّةٍ كاملَةٍ، كلُّ حلْقَةٍ فيهَا تُواصلُ مَا قبلهَا وتتَّصلُ بما بعدَها، حتَّى يرتدَّ آخرُهَا إلى أوَّلِها في حَركةٍ دياليَّةٍ سُننيَّةٍ سَببيَّةٍ، مُستَمِرَّةٍ مُترابطَةٍ.

فمَادَّةُ الأرضِ مَثلاً (والتي هيَ مَبدَأُ خَلْقِ الإنسَان)، لِشَمْسِ السَّماءِ فيهَا أثرٌ ثابتٌ وبَالِغ، مِنْ حَيثُ كونُهَا -مَثلاً- تُؤثِّرُ في حركَةِ الرِّياحِ وطَبيعَتِهَا، والرِّياحُ بدَورِها تُزجي السُّحُبَ التي تُقلُّ الغيثَ، وبالغَيثِ تحيَى الأرضُ وتتفتَّقُ عَنْ صُنوفِ الزُّروع، وبِالزَّرعِ يتقوَّتُ الحيَوانُ، وبالزَّرعِ والحيَوانِ معاً يَغتَذي الإنسَانُ، ثُمَّ يَرتدُّ هَذا الإنسَانُ في نهايَةِ المطَافِ إلى الأرضِ التي كانَتْ مُبتدأَ وجُودِه، وتَستمرُّ الحيَاةُ عَلى نظائرِ هَذا النَّحوِ دوالَيك: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (طه:٥٣-٥٥). والقُرآنُ الكَريمُ مُفعمٌ بمثلِ هَذه الدَّوراتِ الحيويَّة وسِواهَا مما مِنْ شَأنه أن يُعمِّقَ في وَعيِ البشَرِ حقيقةَ التنوُّعِ الحيَويِّ والتَّتامِّ البيئيِّ بينَ الكائنَات[1] .

٣) لُكلِّ كَائنٍ هُويةٌ ذاتيَّةٌ ومَوقعٌ مُعتَبرٌ في مُجتمَع الحيَاة : والمقصُودُ أنْ يُنظَرَ إلى كُلِّ كائنٍ في البسَاطِ البيئيِّ عَلى أنَّ لهُ خُصُوصيةً مُستقلَّةً، مَبناهَا أنَّ لهُ غايةً مُعيَّنةً وأُسلُوباً خاصاً في بلُوغِ هَذه الغايَة، بلْ لهُ فوقَ ذلكَ عِلمٌ بهَذه الغايَةِ وإدراكٌ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ

(١) يَذكرُ علماءُ البيئة في هَذا الشَّأن شواهدَ عديدةً، يَلُوحُ في ظاهرِ بعضِها شيءٌ من طَرافة وكياسَة معاً، منها زعمُهُم أنَّ هنالكَ عَلاقةً متبادلة بينَ ازديادِ عددِ العَوانسِ في بريطانيَا وبينَ كونها قوةً بحريةً عُظمى، وذلكَ أنَّ للعانسَات وُلُوعاً بتَربية القطَط، والقطَطُ هذه تغتَذي بالفئرانِ والعصَافير، فيكونُ ذلك حَاداً منْ تكاثرها، إذْ تكاثرُها هذا يُهدِّدُ وفرةَ نَبات مُعينٍ، وهَذا النَّباتُ هوَ مَصدَرُ علف للأبقَار، والأبقارُ هذه غذاءٌ رئيسٌ لجنودِ البحريَّة، والبحريَّةُ سَببٌ من أسبَابِ عُزوفِ الشُّبانِ عنِ الزَّواج، وهَذا بدَورِه يُسهمُ في ازديادِ عددِ العَوانسِ في البلَاد. انظُر: عَودة الوِفاق بينَ الإنسَان والطَّبيعة: جان ماري بيلت: ص٢٤-٢٥.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ (النُّور: ٤١)، والضَّميرُ في قوله: ﴿عَلِمَ﴾ راجعٌ إلى قَوله ﴿كُلٌّ﴾، أيْ كُلٌّ منَ المُصلِّينَ والمُسَبِّحينَ منَ المَخلُوقاتِ قَدْ عَلِمَ صَلاةَ نَفْسِه وتَسبيحَ نَفْسِه[1] (وهَو بَعضُ دَورِه في الحيَاة)، وليسَ الضَّميرُ راجعاً إلى الله، أيْ قَدْ عَلِمَ اللهُ صَلاتَه وتَسبيحَه، كَيْ لا يكُونَ قولُه تعَالى بعدَ ذلِكَ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ضَرباً منَ التَّكرَارِ أو التَّوكيدِ، فمِنَ المَعلُومِ أنَّ الكَلامَ إذا احتمَلَ التَّوكيدَ والتَّأسيسَ حُمِلَ عَلَى التَّأسيسِ، والله أعلَم.

ولا يزالُ العلمُ الحَديثُ يُطالِعُنَا يَوماً إثرَ يَوم بِعجَائبَ تَحكِي بَديعَ صَنائعِ الأحيَاءِ، ممَّا لا يكَادُ يَهتدي إليهِ كَثيرٌ مِنْ عُقَلاءِ البشَر[2]، بلْ إنَّ قولَهُ تعَالَى: ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ قد يُرادُ بِه العِلمُ والإدرَاكُ في الكائناتِ الحيَّة حقيقةً[3]، ولعلَّ ممَّا يُدني مِنْ وَعينَا هَذهِ الحقيقَةَ القُرآنيَّةَ والوجُوديَّةَ شَواهدُ، منهَا:

أ- أنَّ اللهَ قد خاطَبَ السَّمواتِ والأرضَ كمَا أنبَأنَا القُرآنُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ (فُصِّلت: ١١)، وجَاءَ جَوابُهمَا بِلِسَانِ القَال: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

ب- أنَّ نبيَّ اللهِ سُلَيمانَ علَيهِ السَّلامُ قَد خاطَبَ الهُدهُدَ وسَمِعَ مقالَةَ النَّملَ كما أخبرَنا القُرآنُ الكريمُ أيضاً.

---

(١) وهوَ مَرويٌّ عنِ الحَسنِ البَصريِّ كما في: المحرَّر الوَجيز: لابن عطيَّة الأندلسي: ٤/ ١٨٩، وتَفسير الثَّعالبي: ٣/ ١٢٤.

(٢) سَاقَ الإمامُ الرَّازي في تَفسيره (٢٤/ ١١) وجُوهاً وأنواعاً شتَّى منْ تلك الأعمالِ العَجيبة، فراجعهُ إنْ شئت.

(٣) ومنْ مُرجِّحاتِ هذا المُراد أنَّ الأَوْلَى في مَعنَى التَّسبيح أنَّه تَسبيحٌ مَقاليٌّ حقيقيٌّ لا تَسبيحٌ حاليٌّ مَجازيٌّ، إذْ لَو كانَ المرادُ التَّسبيحَ الحاليَّ (وهوَ الدِّلالةُ على الخَالق) لمَا كانَ معنًى لقوله: (كلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبيحَهُ) أيْ دلالتَه!، ولمَا قالَ: (ولكن لاَّ تَفقَهونَ تسْبيحَهُمْ)، فإنَّ كُلَّ عاقلٍ بفطرَته وقلبِه يفقَهُ دلالَتَها عَلَى خَالقِها. كذلكَ لا مُرجِّحَ للقولِ بأنَّ العلمَ في هذه الآيَة قد سِيقَ مسَاقَ التَّمثيلِ بحالِ مَنْ يَعلَمُ مَا يَصدُرُ عنهُ من الأفاعيلِ فيَفعَلُها عنْ قَصدٍ ونيَّةٍ لا عَن اتِّفاقٍ بلا رَويَّة. انظُر: تَفسيرَ أبي السُّعود: ٦/ ١٨٢، وتَفسير البيضَاوي: ٤/ ١٩٤، ومَا دلَّ عليهِ القُرآنُ: لِمحمود شُكري الألوسي: ص١٠٧، والرُّوح: لابنِ القيِّم: ص٧٢.

جـ- أنَّ النَّبيَّ ﷺ وصَحبَهُ قَدْ سَمعُوا -مثلاً- أنينَ الجِذْع، وتَسبيحَ الحصَى والطَّعام والقَصعةِ والثِّياب، وسلامَ الجبالِ والأَشجار[1].

وفي ذلكَ وأشباهِه مَا يَغرِسُ في وَعينَا البيئيِّ مَعنَى الهُويَّةِ الذاتيَّةِ لِكُلِّ كَائنٍ علَى حِدَة، وفيهِ كذلكَ مَا يجعلُنَا نُعيدُ النَّظرَ في صِحَّةِ مَا شَاعَ لدَى الفَلاسِفَةِ الأقدَمينَ ومَنْ لفَّ لفَّهُم مِنْ أنَّ النفسَ النَّاطقةَ أو المُدرِكةَ مُختصَّةٌ بجِنسِ البشَرِ فحَسْب!.

٤) الامتيازُ البشَريُّ مَنوطٌ بعَدلِ الإنسَانِ في مُجتمَعِ الحيَاة: لعلَّ أهمَّ دليلٍ عَلى الامتيَازِ البشَريِّ في المنظُورِ الإسلاميِّ قولُه تعَالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾(الإسرَاء:٧٠)، غيرَ أنَّ إدخَالَ لفظَةِ (كَثير) في مقَامٍ كهَذا -يقتَضِي البيَانَ- لَيُشعرُ أنَّ في الحُكم تَقييداً واحتِرَازاً ، أيْ أنَّ ثمَّةَ مخلوقاتٍ غيرَ مُفَضَّلٍ عليهَا ابنُ آدَم، قَد تَعدلُهُ أو تَفضُلُه، إنْ بإجمَالٍ أو بتَفصيل، كَما أنَّ الإبهَامَ في لفظَة (كَثير) دَاعيةٌ قويَّةٌ إلى النَّظَرِ بعَينِ الاحترَامِ إلى سَائرِ المخلُوقَاتِ الأُخرَى عَلى إطلاقِهَا، عُلويِّهَا وسُفليِّها، خَطيرِها وحَقيرِها.

وهُنا يُطالِعُنا السُّؤالُ الآتي: مَا مَناطُ التَّكريمِ والتميُّزِ البَشَريِّ إذاً ؟ ومَا معنَى هَذا التميُّز؟

قد يُجابُ علَى هَذا بأحدِ جَوابَين:

- الجَوابُ الأوَّل: أن يُقالَ: إنَّ مَناطَ الامتيَازِ هوَ مَا استأثرَ بهِ الإنسَانُ مِنْ ملَكَاتٍ وقدُراتٍ مادِّيةٍ أو معنويَّةٍ، جسْمانيَّةٍ أو عقلانيَّة.

بيدَ أنَّ هذَا الجوابَ لا يَثبتُ أمَامَ مَا يُطالُعنَا بهِ عالَمُ الأحيَاءِ مِنْ عجَائبِ القُدُراتِ والتَّدبيراتِ التي يعجزُ عنْ مِثلِها كثيرٌ منَ البشَر، كمَا أسلَفنا، ثُمَّ إنَّ هَذا الجَوابَ ناشئٌ مِنْ وِجهَةِ نظَرٍ بَشَريةٍ خَالِصَة، وذاكَ أنَّ الإنسَانَ يَرى في قدُراتِه الجِسميَّةِ وملَكاتِه

(١) انظُر مَزيداً من هذه الشَّواهِد والمَشاهد في الدرِّ المنثور: للسُّيوطي: ٥ / ٢٩٤، فما يتبَعُها. وانظُر ما استفاضَ مِنْ هذه الأخبارِ في الكُتُبِ التي عُنِيَتْ بإبرازِ مثلِ هذا الجانبِ من تاريخِ النُّبوَّةِ والصَّحابة، كأعلامِ النبوَّةِ لأبي الحسنِ المَاورديِ: ص٨٨ فما بعدها، ودلائل النُّبوَّة للبيهقيِّ: ٢/ ١٧ فما بعدها، والخصَائص الكُبرى للسُّيوطي: ١/ ١٦٤ فما بعدَها، وانظُر كتاب (الرُّوح) لابنِ القيِّم: ص٧٢ فما بعدها.

العقليَّةِ أداتَهُ المُلائمَةَ لحفظِ حاجاتِهِ وإغناءِ حضَارتِه وتحصيلِ خَيرِه هُوَ، غيرَ أنَّ النَّظرَ منَ المَوقعِ المُقابلِ للإنسَانِ يُبدي لهُ وجهةَ نظرٍ مُغايرَة، فالقُدُراتُ والملَكاتُ التي يَراهَا الإنسَانُ مفتاحَ خَيرِه الخَاصِّ وسَعادَتِه البشَريَّة ليْسَتْ هيَ ذاتُها بالضرَّورةِ سَببَ الخَيرِ والسَّعادةِ لدَى الأحيَاءِ الأُخرَى، فسُرعةُ الفَهدِ مثلاً قَرينةٌ عَلى تفوُّقِه عَلى البشَرِ منْ وجهَةِ نظَرِ خيرِه الخاصِّ، ولوْ كانَ عدْوُه بَطيئاً كالإنسَانِ لَما دامَتْ حياتُه ولَما استقرَّ نظامُه، وكَذلكَ الأمرُ في حِدَّة بصَرِ الصقَرِ وقوَّةِ الضَّيغَمِ ونَحوِ ذلك.

وهكَذا، تجدُ أنَّ لِكُلِّ عَالَمٍ منَ الأحياءِ ملَكاتٍ وملَكوتاً كما يُقال، ولهُ في ضِمنِ ذلكَ قدُراتٌ ذَاتيَّةٌ يَستَميزُ بهَا، ونظامٌ خَاصٌّ لا يَصلُحُ لهُ سِوَاه، وهَذا بعضُ مَا عنَاهُ القرآنُ الكريمُ في قولِه تعَالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه:٥٠)، وفي قَولِه أيضاً: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾[1] (السَّجدة:٧).

صَحيحٌ أنَّ الإنسَانَ في الفَلسَفةِ أو في الرِّياضيَّاتِ أفضَلُ منَ الفَهد ، بيدَ أنَّ الفهدَ في المُقابلِ أفضَلُ منَ الإنسَانِ في العَدْوِ[2] ، أمَّا تقديرُ الفلسَفةِ وتثمينُ الرِّياضيَّاتِ أكثرَ منَ العَدْوِ فناشِئٌ كما قُلنا منْ تَصوُّرٍ بشَريٍّ خَاصٍّ؛ ولِذا، كانَ منْ غيرِ العَدلِ الحكمُ عَلى غَيرِ البشَرِ منْ مَوقعٍ بَشَريٍّ، ومنَ الجَورِ وزنُهُم بقِيَمٍ بشريَّةٍ خالِصَةٍ بَدلاً منْ قِيمٍ تُلائمُ عالمَهمُ الخاصَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ (الرَّحمن:٩) .

– الجوابُ الثَّاني: أنْ يُقالَ : إنَّ مَناطَ الامتيازِ البشَريِّ هوَ هويَّتُه الذَّاتيَّة، أيْ بشَريَّتُه، أو آدميَّتُه.

غيرَ أنَّ هذا الجوابَ –كمَا تَرَى– شَبيهٌ بِسَابقِه، أيْ إنَّهُ يَجيءُ منْ منظُورٍ بشَريٍّ مَحض، بلْ إنَّ القرآنَ الكريمَ ليُقِرُّ في عبارَته أنَّ في الوجُودِ مخلوقَاتٍ أكبرَ وأعظمَ خطَراً منَ الإنسَانِ، في مثلِ قَولِه تعَالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (غَافر:٥٧)، وقَولِه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ

(١) قرأَ نافعٌ وعاصِمٌ وحمزةُ والكِسَائيُّ وخلَف بفتحِ اللاَّم، والباقونَ بتَسكينِها. انظُر: النَّشر: لابنِ الجزَري: ٢/ ٣٤٧، وإتحاف فُضَلاء البشَر: لشهاب الدِّينَ الدِّمياطي: ص٤٤٩ .
(٢) انظُر: الفلسَفة البيئيَّة: مايكل زيمرمان: ص١٢٨.

بَنَٰهَا ﴾(النَّازعات:٢٧) ؛ ولذا، فإنَّ منَ البَخْسِ والإخسَارِ الذي يجترحُهُ بعضُ أتبَاعِ المذاهبِ الفلسفيَّة في تصوُّرِهم البيئيِّ أنَّهم يتحمَّسُونَ كثيراً لفكرَةِ المسَاواةِ في المقَامِ الإنسَانيِّ كَما ذكرنَا سَالفاً، فإذا مَا طُرِحَ الأمرُ على البسَاطِ البيئيِّ، وقُورنَ عالمُ البشَرِ بغَيرِه منْ عَوالمِ الأحيَاءِ، ترَاهُم يفتُرونَ أو يتَهانَفونَ (يَهزَؤونَ) أو يَذهَلُونَ عنِ فكرَةِ المُساواةِ أصلاً، أو لربمَّا تمادَوا في التَّغاضِي عنْ دَواعِي المُسَاواةِ في مُجتَمَعِ الحياةِ، أو أمعَنوا في البَأْوِ بمَزَعْمِ البشَريَّةِ الصِّرفة أو بمَزعمِ آخر، ولكنَّ القُرآنَ الكريمَ يُخالفُهُم إذْ يَردُّ الأمرَ إلى نِصَابه، وأقصِدُ إلى علَّة المُساواةِ بينَ الأحياءِ كافَّةً، وهيَ علَّةٌ مركَّبةٌ ثنائيَّة:

١- طرفُهَا الأوَّل: علَّةُ (المخلُوقيَّة) للهِ تعَالَى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ (المائدَة:١٨).

٢- وطرفُهَا الثَّاني: علَّةُ (المربُوبيَّة) التي تَنتظمُ العَالَمينَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(الفاتحة:٢).

وعَلى الرُّغمِ منْ وجُودِ بَشرٍ همْ غايةٌ في الفسَادِ والسُّوءِ فإنَّ أمثالَ تلكَ المذاهبِ تبقَى مُسْتَمسكةً بطلاقَةِ الامتيَازِ البَشريِّ دونَما تقييدٍ، غيرَ أنَّ القُرآنَ الكريمَ يُفنِّدُ طلاقةَ هذا الحُكمِ، فيَستَثني منهُ أولئكَ المُفسدينَ الضَّالِّين، إذْ يَسلُبهُم وسَامَ الكرامةِ البشَريَّة، في أمثالِ قولِه تعالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٦)، وقولِه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الجمُعة:٥)، بلْ يحطُّهم في درْكٍ دونَ درْكِ البهَائمِ والأنعَام: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩)، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفُرقان:٤٤).

ممَّا تقدَّم، يَظهَرُ لَكَ أنَّ الجَوابَيْنِ لا ينهَضَانِ إلاَّ عَلى سَاقٍ بلا قَدَم، أيْ إنَّهما غيرُ وافِيَينِ بتَحقيقِ مَناطِ الامتيَازِ البشَريِّ، غيرَ أنَّ هنالكَ جَواباً ثالثاً تُقدِّمهُ الرُّؤيةُ

الإسلاميَّةُ في هَذا السِّياق، هاكَ بيانَه:

إنَّ مناطَ الامتيَازِ البشَريِّ ليسَ ناشئاً منْ أوصَافٍ ذاتيَّةٍ لَصيقَةٍ بالإنسَانِ فحَسْب، ولا مِنْ ملَكاتٍ وعبقريَّاتٍ تَميزُهُ مماَّ سِواه، إذْ هوَ -ككَثيرٍ منَ الكائنَاتِ- مخلُوقٌ منْ طينٍ ومَاءٍ مَهين، بَلْ إنَّ من بينِ الكائنَاتِ منْ يفوقُهُ قُدرةً وخَطَراً، ناهيكَ بأنَّ ملكاتِه الخاصَّةَ قَد لا تَعنِي شَيئاً بالنِّسبةِ إلى سَائرِ الكائنَات.

نَعَمْ، المناطُ هـهُنا شيءٌ فَوقَ مَا قيلَ، وأَمرٌ خَارجٌ عَنِ الذَّاتِ (ميتَافيزيقي)، وأقصِدُ أنَّه حكمٌ خارجيٌّ المَصدَر، ومِنحَةٌ مُسدَاةٌ منْ آخَر، هَذَا الآخَرُ هوَ (الله)، ودونَكَ ضميرَ الفاعِل (نَا) في قَولِه تعَالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا﴾، ففيهِ تَنويهٌ بمَناطِ هَذا التَّكريمِ وبمَصدَرِه.

والمَعنَى: أنَّ اللهَ خالقَ الكَونِ وربَّ العالَمينَ قَد شَاءَ أن يُكرِّمَ هَذا المخلُوقَ عَلَى التَّخصيص، فبوَّأهُ رُتبةً ممتازةً بينَ سَائرِ مخلُوقاتِه، بيدَ أنَّهُ -عزَّ اسمُهُ- في الآنِ ذاتِه قَد علَّقَ تمامَ الامتيازِ بتَحقيقِ الانقيَادِ لهُ سُبحانَهُ والائتمامِ بمَنهَجِه وشَرائعِه وأحكَامِه، وهذا ما دلَّتْ عليهِ الآيةُ المعقِّبةُ لآيةِ التَّكريم بطَريقِ الإشَارَة: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ (الإسرَاء: ٧١)، ثمَّ تتلُوهَا آيةٌ أُخرَى تنبِّهُ عَلى مَصدَرِ تلكَ الشرَّائعِ والأحكَام، تَحذيراً منْ مُجافاتِه أو هَجرِه أو الاستبدَالِ به: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾(الإسرَاء:٧٣-٧٥).

وفي المُقابِلِ أقُولُ: مثلَما كانَ اللهُ-وأعني الالتزامَ بشَرائعِ الوَحي- مصدَرَ الكرامَةِ ومَانحَ الامتيَازِ البشَريِّ، فكَذلكَ هوَ وحدَهُ، ولا شيءَ سِواهُ، مَنْ يَمنعُ هَذا الامتيازَ ويعكِسُهُ في صُورَةِ الضَّعةِ والمهَانَة: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (الحجّ: ١٨)، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النُّور: ٢١).

نَعمْ، إنَّ مناطَ التَّكريمِ والامتيَازِ البشَريِّ في مُجتَمَعِ الحيَاة هوَ التزامُ الإنسَانِ بما شَرعَهُ الوحيُ مِنْ أحكَامٍ، والسَّيرُ في هَديِ آيَاتِه وسُنَنِه النَّاظِمَةِ والحافِظَةِ لنِظَامِ هَذا

العَالَمِ الحيَويِّ الرَّحيب، بكُل آفاقِه، فسَاحةً وعُمقاً وارتفاعَاً: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصِّلت:٥٣).

تَفريعاً علَى هذا، في وُسعِنا القَولُ بأنَّ قَدرَ الامتيَازِ البشَريِّ إذاً، يتناسَبُ طَرْداً معَ مقدَارِ الالتزَامِ بتلكَ الأحكَامِ ورعَايتهَا، وبتَعبيرٍ آخَر: معَ مَبلَغِ احتمالِ التَّكليفِ الإلهيِّ ومَدَى الوفَاءِ للأمانَةِ التي حملَهَا الإنسَانُ في مُفتَتحِ وجُوده، والالتزامُ هَذا هُوَ عينُه العَدْلُ الذي نَقصِدُه في الآفاق أو في البِسَاطِ البيئِيِّ، عَلَى اعتبَارِ أنَّ العَدلَ هوَ الحكمُ بالحقِّ الذي نَزَلَ بهِ الوحيُ، بَحسَبِ ما أسلَفنا. تلكَ هيَ الرَّكيزةُ الفكريَّةُ التي يُقيمُ عليهَا المنظُورُ الإسلاميُّ مذهبَه في (احترَامِ الطَّبيعة).

## المبحثُ الثَّاني:

## أُصولٌ إسلاميَّةٌ لمَسلَكٍ بيئيٍّ رشيد[1]

### المطلبُ الأوَّل

### المسلَكُ الغاشِم المرفوضُ (مسلَك القَهر[2] أو العنف)

أساسُ المسألة قائمٌ علَى أنَّ علاقةَ الإنسَانِ بمُحيطه البيئيِّ تحلُّ في أحَد مَسلَكَين اثنَين: إمَّا (القَهْر)، وإمَّا (الرِّفق)، وفيما يأتي بيانٌ لملامح المسلك الأوَّل الغاشِم المَرفوض:

غالبَاً مَا يَفشُو هَذا المَسلَكُ في حضَارات الاستِكبار عبر الزَّمان، إنْ في ماضِيه أوْ في حاضِره، وهُو ناشِيءٌ عنْ توهُّم (الصِّراع) بينَ الإنسَانِ وبيئَته، بحسَب التَّعبير المُعاصِر، وعنْ تظَنٍّ بانفِراد الإنسَان في موقع السُّلطَة عَلى البيئَة، ومِن ثَمَّ، لهُ استِباحةُ كلِّ صُنوف التَّصاريف، حتَّى ما كَانَ عَلَى سبيلِ القَهْر والقَسْر، والإعنَاء والإعنَات.

ولا جرَمَ أنَّ أمثالَ هذه التَّصاريف مُحاكَاةٌ إنسَانيَّةٌ مُتسَافلَةٌ لأوصَاف الألوهيَّة المُتعاليَة، وإنزالٌ للإنسَانِ في غَير منزلَته الحقيقيَّة، ثمَّ هيَ منْ بعدُ، ابتِهارٌ واغترارٌ بقدَرِ التَّسخير، بلْ فَهمٌ سَقيمٌ لهُ، وتَعسُّفٌ في استعمَال الحقِّ فيه، إذْ قدْ يَظنُّ الإنسَانُ -لطُول الإلْف- أنَّ مَا حولَهُ منْ كائنات مملُوكةٌ لهُ، وأنَّه حقيقٌ أصْلاً بتلكَ المنزلَة من بينِها: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (القَصَص:٧٨).

إنَّ مَذهبَ الصِّراع معَ البيئَة[3] بنَحوِ هَذا الفَهم -فِيما أَجزِمُ- مَذهبٌ وَاهٍ طَائشٌ

---

(١) والرُّشدُ هاهُنا نقيضُ الغَيِّ، وهو إصابةُ القصْد والعدل في المسالك والطُّرق، تقولُ: رشدَ فُلانٌ إذا أصاب وجهَ الطَّريق، والمَراشدُ مقاصدُ الطُّرُق، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ (الجنّ:١٤)، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرَة:١٨٦) ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ (هُود:٩٧)، ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غَافر:٣٨).

(٢) القَهرُ الغلَبةُ والأخذُ العَنيفُ، تقولُ: أَخذتُ فُلاناً قَهراً وقُهرةً أَيْ اضطِراراً وهو كارهٌ من غَير رضًى.

(٣) (Ecological struggle)، وهو مُندرجٌ في مَبدأ (الصِّراع منْ أجلِ الحياة Struggle for life)، الذي تحدَّثَ عنه الإنكليزيُّ (هربرت سبنسر Herbert Spencer ت:١٩٠٢م)، أو في مَبدأ (لا شَيء مقابلَ لا شَيء Nothing for nothing) الذي تحدَّثَ عنهُ الاقتصادُ اللِّيبراليُّ. انظُر: موسُوعة =

أخرَقُ، لا يَنهضُ إلاَّ عَلى إحدَى دِعَامتَيْن مُتهَافِتَتَيْن؛ إمَّا الجهلُ أو الظُّلمُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزَاب:٧٢):

١)- أمَّا الجَهلُ: فهُوَ هٰهُنا مُركَّبٌ:

أ- فهُو، مِنْ جهةٍ، جَهلٌ بطَبيعَةِ البيئةِ التي يحيَى الإنسَانُ فيها، وأقصِدُ مِنْ حَيثُ كونُها مِطوَاعةً لرَغائبِه النَّبيلَة، ومُذلَّلةً لمقاصده الشريفَة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (المُلك:١٥).

ب- وهُو، مِنْ جهَةٍ أُخرَى، جَهلٌ بأدَواتِ التَّعاطي مَعَ البيئَة، وبالوسَائلِ العلميَّةِ المُتطوِّرةِ في هذا المَيدانِ باستمرَار، وذاكَ أنَّ هنَالكَ تناسُباً سُننياً مُطَّرداً بينَ (المُدارسَةِ والمُمارسَة)، فكلَّما ازدادَ الإنسَانُ دراسَةً ودرايَةً بأوجُهِ الجدَلِ العلميِّ بينَهُ وبينَ بيئَتِه ازدادَ خِبرَةً ومِراسَاً في التَّفاعُلِ معَها، وتوفَّرَ عَلَى مفَاتيحِ أغْلاقهَا وحلُولِ مَشَاكلِها، بكيفيَّةٍ مِلاكُها البحثُ والنَّظَر: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾(العنكبُوت:٢٠).

٢)- وأمَّا الظُّلمُ: فهوَ ظُلمُ بيئَتِه إذْ يُخرِجهَا عنْ جَادَّة الحقِّ التي أُقيمَتْ فيهَا إلَى سَبيلٍ جائرةٍ، سَواءٌ:

أ- إلَى سَبيلِ النَّفعِ الخاصِّ المشرُوع عَلى حِسَابِ النَّفعِ العَامِّ، وهوَ (الإسرَاف):

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعرَاف:٣١).

ب- أو إلَى سَبيلِ النَّفعِ المُضرِّ واللاَّ مشرُوع، وهوَ (الإفسَاد): ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾(البقرة:٢٠٥).

وبهذا، يَلُوحُ لكلِّ ذي عَينٍ وعقلٍ أنَّ بيئَتَهُ ذاتُ طَبيعَةٍ، وغَايةٍ:

١- أمَّا طَبيعتُها: فاشتِمالُها علَى عنَاصرَ ذاتيَّةٍ تُعينُ في تَطويعِهَا للغايَاتِ الإنسَانيَّةِ النَّبيلة.

---

=علم الإنسَان: ص٤٦٤و٤٦٦، وعَودة الوفاق بين الإنسَان والطَّبيعة: جَان مَاري بيلْت: ص٢٦٢.

٢- وأمَّا غَايتهُا: فدائرةٌ معَ الغايَاتِ الإنسَانيَّةِ الخيِّرة، في كلِّ ما مِنْ شأنِهِ أنْ يُقيمَ حقَّاً أو يدفعَ باطِلاً، أو يُثبتَ صَلاحاً أو ينفيَ فسَاداً، وكلَّما بالغَتْ غايَةُ الإنسَانِ في خيريَّتها بالَغَتْ البيئَةُ بعطَائهَا في سُنَّةٍ ماضيةٍ بغَيرِ تَحرفٍ أو تنكُّب: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ (الجنّ:١٦)، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾(الأعراف:٩٦).

## المطلبُ الثَّاني

## المَسلكُ الرَّشيدُ المطلوبُ (الرِّفق والارتفَاق)

البيئَةُ في الرُّؤيةِ الإسلاميَّة زمَانُ الإنسَانِ الذي فيهِ يعيشُ:﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾(النَّبأ:١١)، وهيَ كَذلكَ مكانُهُ ومَادَّةُ مَا يتعيَّشُ بهِ منْ أسْبابٍ ومنَافِع: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعرَاف:١٠)، ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَآئِقَ غُلْبًا وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾(عَبس:٢٤-٣٢).

ومِن ثَمَّ، كانَتْ نِسبةُ البيئَةِ منَ الإنسانِ كَالأمِّ الحاضِنَةِ الرَّاعيَة، حتَّى وردَ في الحديث: (تحفَّظُوا منَ الأرضِ فإنَّهَا أمُّكُم)[1]، فكَانَ منْ آكَدِ وجُوهِ العَدْلِ برُّ هذهِ (البيئَةِ الأُمِّ) وتَوفيتُها حقَّها في صُورٍ منَ العِلمِ والرِّفقِ والرَّحمة[2].

ومَسلكُ الرِّفقِ أو الارتفَاقِ هَذا[3] يعنِي: (الانتفاعَ المشرُوعَ بالبيئَة، بأسَاليبَ علميَّةٍ رَفيقَةٍ)، وهذَا يقتَضي: (مُشَرِّعاً، ومنهَجاً مَشرُوعاً، وأُسلُوباً)، ودونَكَ بيَان ذلكَ:

- أوَّلاً: المُشرِّع: وهُوَ (اللهُ عزَّ شأنُه)، وذاكَ أنَّ صاحبَ الفعلِ الحقيقيِّ في التَّمكينِ هُوَ

---

(١) أخرجهُ الطَّبرانيُّ في المُعجَم الكبير (٤٥٩٦)، وأخرج الدَّيلميُّ في مُسنَده (٧٢٨٩): (لا تسبُّوا الأرضَ فإنَّها أمُّكُم) وفيهِ ضَعف. وانظُر: الدرّ المنثُور: ٨/ ٥٩٢، ومجمَع الزَّوائد: ١/ ٢٤١.

(٢) وهوَ ما يُتَداعَى إليه اليومَ في الأوساطِ الفلسفيَّة، بقَصدِ (إعادَةِ الوِفاقِ مع الطَّبيعة reconciliation)، و(التَّعايش معَها بسَلام commensalism).

(٣) وأقصدُ بهِ هيئةَ التَّعامُل؛ أن تكونَ رفيقةً، وغايةَ التَّعامُل؛ أنْ تكونَ في ارتفاقٍ أي انتفاعٍ وصَلاح، قالَ تعالَى:﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ (الكهْف:١٦)، وقال:﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكَهف:٣١)، أي مَوضعاً للارتفاق والانتفاع في غيرِ إيذاءٍ ولا إفساد.

ذاتُه صَاحبُ الفعلِ الحقيقيِّ في الإيجَادِ والتَّكوينِ، ومِنْ ثَمَّ:

١- هُوَ وحدَهُ مَصدرُ التَّمكينِ في الوُجُود: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (القَصَص:٦).

٢- وهو وحدَهُ كذلكَ مَصدَرُ العلمِ والتَّعليم في هَذا الوجُود: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ (البقرَة:٢٨٢)، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1] (المُلك:١٤). وذاكَ أنَّ مَنْ يخلُقُ شَيئاً عَلى سَبيلِ القَصدِ ويَستَحوذُ عليه بمَكنَةٍ وقُدرَةٍ لا بُدَّ وأنْ يكونَ عالماً بهِ، بل الأعلَمَ بهِ وبماهيتِه، عَلَى الكُلِّيَّةِ والجُزئيَّة معاً، كما يقولُ المتكلِّمُون خلافاً للفلاسفة القُدامَى. وقَد جمَعَ القُرآنُ بينَ ذينكَ المعنَيَيْن-التَّمكينِ والتَّعليم- في مقَام واحد، تَنبيهاً عَلى تلازُمهمَا واختصَاصِهمَا بفاعِلٍ واحِدٍ هوَ اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾(يوسُف:٢١).

وتَعليمُ الله يَعنِي -فيمَا يعنِي- نَصْبَ الدَّلائلِ، ورَسْمَ الحُدود، وبيَانَ المنُوعِ والمَشرُوعِ ممَّا يَطمحُ الإنسَانُ إلى كَسْبِه منْ مَصالِحَ ومنافعَ، في تَشريعٍ تامٍّ وكَاملٍ وعَادلٍ، وذاكَ أنَّ العقلَ البشَريَّ مُجرَّداً عَنِ الوَحيِ لا يَستقلُّ بِدَرْكِ المصَالِح، ولا يَهتَدِي إلى وجُوهِ المَنافعِ إلاَّ عَلى نَحوٍ نسبيٍّ أو قَاصرٍ أو ظَاهرٍ[2]، ولعلَّ هَذا مَا تَفترُّ عنهُ صُنُوفُ العلائقِ الإنسَانيَّة والبيئيَّة عَلَى حدٍّ سَواء، والتي تَسوسُهَا لغةُ المنافعِ العاجِلَةِ أو الخاصَّة، ويَستبدُّ بِهَا مَنطقُ المصَالحِ العميَاءِ أو العَوْرَاء، وأعنِي التي تُدركُ مِنَ المصلَحةِ شِقَّها، في مَشهَدٍ شَائهٍ أو أبتَر، (وإنَّ ربَّكُم ليسَ بأعْوَر)[3].

أَعودُ فأقولُ: في مجَالِ التَّشريعِ البيئيِّ تَجدُ القُرآنَ الكَريمَ يؤكِّدُ مَصدَريَّةَ اللهِ في العلُوم، نعَمْ.. في العُلوم والمُخترعاتِ التي بِهَا باشرَ الإنسَانُ تعاملَهُ معَ البيئَةِ منْ حَولِه، فكَانَتْ سَبباً في تَطويرِهَا وتَهيئَتِهَا للانتفَاعِ الإنسَانيِّ، ويَقينِي أنَّ العقلَ البشَريَّ مَا

(١) أجازُوا في (مَنْ خَلَقَ) أن تكونَ فاعلاً، أو أن تكُونَ مفعُولاً، ولعلَّ المفعوليَّةَ أظهَر، بضَميمَةِ نُصُوصٍ أخرى، كقَوله تعالَى: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الشُّورى:١٢).

(٢) وهُو ما عبرَّ عنهُ هيغل بـ(مَكر العَقل). انظُر: موسوعة الفلسفة: د.عبد الرَّحمن بدوي: ص٥٩٢.

(٣) وهُو اقتباسٌ رمزيٌّ من حديثِ النَّبي ﷺ: (ما مِنْ نبيٍّ إلاَّ وقَدْ أنذرَ أمَّتَهُ الأعورَ الكذَّابَ، ألَا إنَّهُ أَعورُ، وإنَّ ربَّكُم ليسَ بأعوَر، مكتُوبٌ بينَ عينَيْه ك ف ر، أيْ كافر). أخرجهُ البُخاريُّ في مواطنَ عديدةٍ منَ الصَّحيح، منها رقم (٦٧١٢)، وكذاكَ مُسلمٌ (٢٩٣٣).

كَانَ ليتوفَّرَ علَى مِثلِ هَذهِ العُلومِ لَوْلا التَّوجيهُ الربَّانيُّ والإلهامُ العُلويُّ (الغيبيُّ)[1]، فكلُّ ما أَبدعهُ أو يُبدِعُهُ في هذَا السِّياقِ إنمَّا هُو -علَى التَّحقيقِ- مَعلُولٌ للإلهامِ الإلهيِّ يقيناً، وأنتَ تجدُ لِهذا اليقينِ شَواهدَ كثيرةً، سَاقَها القُرآنُ في مَعرضِ قِصَصٍ وأحدَاثٍ تاريخيَّةٍ عديدَةٍ، منهَا -على سَبيلِ التَّمثيلِ-:

١- مَا صرَّحَ بهِ القُرآنُ الكَريمُ مِن استِرشَادِ الإنسَانِ الأوَّلِ بدَلائلِ البيئَةِ المُسخَّرة لهُ، بغيةَ الخلاصِ منَ المآزقِ والمشَاكلِ التي تعترضُه، وذاك في قِصَّةِ (ابنَي آدَم) ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ (المائدَة:٣٠-٣١).

٢- مِنْ ذلكَ توجيهُ اللهِ (نوحَاً علَيه السَّلام) في استخدامِ النَّقلِ المَائي:

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ (هُود:٣٧-٣٨)، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (المؤمنُون:٢٧).

٣- مِنْ ذلكَ أنَّ أوَّل[2] بَيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ في الأرضِ كانَ منْ تَقعيدِ الملائكَةِ، ثمَّ جَاءَ (إبراهيمُ وابنُه إسماعيلُ علَيهما السَّلام) فنهضَا بتلكَ القواعدِ وشيَّدا البَيْتَ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمرَان:٩٦).
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (البقرة:١٢٧).

---

(١) أشَارَ إلَى هذَا المعنَى ابنُ حزمٍ (٤٥٦هـ) في مَطلعِ رسالتِه (في مراتبِ العُلُوم)، ضِمنَ كتابِ: رسَائل ابن حَزم الأندلسيِّ: ٤/ ٨٠.

(٢) الأوَّليَّةُ هاهُنا تحتملُ الإطلاقَ أي إنَّه أوَّلُ بيتٍ ولَم تكُن بيوتٌ قبلَه، وتحتملُ التَّقييد أي إنَّه أوَّل بيتٍ وُضعَ مُباركاً وهدًى، وكانَت بيوتٌ قبلَهُ، واللهُ أعلَم.

٤- مِنْ ذَلِكَ أيضاً مَا علَّمهُ الله (لدَاودَ علَيه السَّلامُ) مِنْ صناعَةِ اللِّباس[1]، وتَطويع الحَديد، فكَانَ رائدَ البَشَريَّة في هَذا البَاب ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ (الأنبيَاء: ٨٠)، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًاۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سَبأ: ١٠-١١).

٥- ثمَّ تلاهُ ابنُه (سُلَيمانُ علَيه السَّلامُ)، لِيعلِّمَ النَّاسَ فنُونَ استِخدام الزُّجَاج، بحسَب ما يلُوحُ منْ قوله تعَالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (النَّمل: ٤٤).

٦- وفي حِقبةٍ تاريخيَّةٍ أُخرَى، جَاءَ (ذُو القَرنَيْن) فابتَدعَ للبشَريَّةِ نِظَامَ السُّدودِ رَحمةً منَ الله، كذلكَ كانَ رائداً في مَجالِ الكِميَاء والمَزج بين المعَادنِ والفلزَّات والسَّوائل ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّىۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ (الكَهف: ٩٤-٩٨).

ونظائرُ هَذي الشَّواهد وَافرةٌ في القُرآن وفي السُّنة معاً[2]، ولعلَّ أبلَغَ مَا يُستَنبطُ منهَا أنَّ مَا تَتوقَّلُ بِه البَشريَّةُ في مصَاعِد التطوُّر والتقدُّم الحَضَاريِّ إنمَّا هوَ مَدينٌ لجهُودِ الأنبيَاءِ وللوَحي الذي علَّمهُم ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ

(١) ويُروَى أنَّ (أوَّلَ منْ خطَّ وخاطَ إدريسُ عليهِ السَّلام). انظُر: فَتح الباري: لابن حجَر: ٦/ ٣٧٥، والمعارِف: لابن قُتيبَة: ص٥٥٢.

(٢) في تُراثنا الإسلاميِّ مُصنَّفاتٌ ومباحثُ تتناولُ أمثالَ هَذي الشَّواهد بالذِّكر والتَّحقيق، وتُعرَفُ بمباحث (الأوائل)، انظُر نَموذَجاً منها في: صُبح الأعشَى: للقلقشَندي: ١/ ٤٦٩ فما بعدَها (تحتَ عُنوان: الأوائل)، وقَد أفردَ لها أبو هلال العسكريُّ مُصنفاً في مُجلَّدين ضَخمَين، سمَّاه (الأوائل)، وأوردَ الثعالبيُّ منهَا في كتابه (لطائفِ المعارِف).

ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقَرة :٣٢) .

– ثانياً : المنهجُ (المَشرُوعُ): هُيِّئَتْ بيئةُ الإنسَانِ منذُ طالعِ نَشأَتها عَلى أقوَمِ نظَامٍ وأبدَعِ طرازٍ، كَيما تُواكِبَ مهمَّةَ الإنسَانِ في هذه الدُّنيا، ولِتمنَحَهُ منْ ذاتِ نفْسِها ما يُقيمُ به عودَهُ ويَستنجزُ به غايتَه، في سُنَّةٍ إلهيَّةٍ عامَّة﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثيَة :١٣).

هذَا يَعني أنَّ البيئةَ في طبيعَتِهَا؛ جَوهَراً ومَظهَراً، صَالحةٌ لاستيطَانِ البشَر، أيْ إنَّ الأصلَ فيهَا هوَ الصَّلاح، أمَّا طارئَةُ الفسَادِ فعَيثٌ بَشريٌّ وإهمالٌ مُصطَنَعٌ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾ (الأعرَاف:٥٦).

حَذراً منْ هَذا، شرعَ اللهُ منهجَ (العِمارَة) في الأرضِ عَلى سَبيلِ الوجُوبِ إمعَاناً في الحفَاظِ عَلى صَلاحِ البيئَةِ الأصيلِ منْ جهَةٍ، ودَرءاً للفسَادِ العَارضِ منْ جهَةٍ أُخرَى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هُود: ٦١). ولفظُ الاستِعمَار[1] هُهُنا يُقدِّم جملةً منَ المعَاني والحقَائق الحَافِزَةِ نحوَ ذلكَ المنهَجِ الحضَاريِّ، ومنهَا:

١– أنَّ البيئةَ (الأرضَ) شَاهدٌ زمَانيٌّ يحكِي تاريخَ الإنسَانِ وآثارَهُ عَلى امتدادِ الزَّمان، وهو مَعنىً مُستفادٌ مِن اشتقاقِ ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ منَ (العُمُر)، أيْ أطالَ أعمارَكُم فيهَا، كمَا تقولُ: (استبقَاكُم) منَ (البقَاء).

٢– أنَّ البيئةَ شاهدٌ مكَانيٌّ ومَحلٌّ لأعمَالِ الإنسَانِ ومَادةٌ لصنَائعِه، ومَحضِنٌ لحضَارَته، وهو مَعنىً مُستفادٌ مِن اشتقاقِ (اسْتَعْمَرَكُمْ) مِنَ (العِمَارَة) من جهةٍ، أيْ جعلَكُم عُمَّارهَا، ومنَ (العُمْرَى)، وهيَ التَّملُّك طولَ العمُر من جهَةٍ أُخرَى.

ولا ريبَ في أنَّ هنالكَ تلازُماً سُنَنياً وتَأثُّراً مُتبادَلاً بينَ كِلا المعنَيَيْن؛ المكَانيِّ والزَّمانيِّ، فعمارةُ المكانِ، الذي هوَ بيئةُ الحضَارَة، تطيلُ عُمرَ الزَّمان، الذي هوَ مُدَّة تاريخِ الحَضَارة. وعلَى هَذا، يكونُ مَنهجُ العِمارةِ عبارَةً عنْ: (حركَةٍ إنسَانيَّةٍ واعيةٍ قَادرَةٍ

(١) (عَمَرَ) لفظٌ يدلُّ على أصلَين؛ امتدادٌ وارتفاعٌ، ونقصدُ به هُهُنا امتدادَ الزَّمان (العُمُر)، وارتفاعَ المكَانِ (العِمارةَ والتَّشييدَ). انظر: مادَّة (عمر) في معجم مقاييس اللُّغة لابنِ فارس.

خَيِّرةٍ ، تُحيلُ مادَّةَ الطَّبيعَةِ أشكَالاً حضَاريَّةً تَدعمُ وجُودَ الإنسَانِ ومعاشَهُ وإبداعَهُ وغايتَه).

ولعلِّي لا أغلُو إذْ أقُول: إنَّ منهجَ العِمارَةِ بهَذا المَعنَى مَنهجٌ مُقدَّسٌ، فهوَ تجلٍّ ربَّانيٌّ لِصفاتِ (العلمِ والقُدرَةِ والرَّحمَةِ) الإلهيَّة﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (الزُّخرُف:٨٤).

هَذا التَّجلِّي يَعنِي مَنهجَاً تَشريعياً يُهيبُ بالإنسَانَ مُحاكَاةَ تلكَ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ في حُدودِ صِفَتِه البشَريَّةِ وغايتِه الإنسَانيَّة، مِنْ حَيثُ هوَ خليفةٌ في الأرضِ (بقَرارٍ إلهيٍّ)، فإذا كانَ اللهُ المَلِكُ يَقضِي بالحقِّ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ (غَافِر:٢٠)، فشيمةُ الخليفةِ كذلكَ أن يتحَرَّى هَذا الحقَّ لِيحكُمَ بهِ في شُؤونِهِ وشُؤونِ مَا يُحيطُ بِه﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ (صَ:٢٦).

هذا الحقُّ –فيمَا أَجزِمُ– هوَ العَاصِمُ الحضَاريُّ مِنْ أَهْوالِ التوسُّعِ وأَوخامِ التطوُّرِ التي يُفرزُهَا شِعارُ الإعمَارِ أو أيُّ شِعارٍ يَشاكِلُه، لا سيَّما وأنَّنا نَشهدُ اليومَ غُلوّاً في ابتداعِ أسبَابِ الترَّفِ والطُّغيانِ، وخُروجاً عنْ مألوفِ الطَّبيعةِ، وإعناتاً للفطرَةِ يبلُغُ حدَّ التَّطوُّح.

نَعَمْ، قدْ تكُونُ آفاقُ البيئة مُشرَعَةً لاستغلالِ الخامَاتِ وإعمَارِ القِفَار، غيرَ أنَّ الفعلَ الإنسَانيَّ فيهَا لا بُدَّ أنْ يُلجمَ بمَنهَجِ العَدْل، وأَعني بالعَدْلِ هُهُنا الوزنَ بميزَانِ الشرَّعِ الصَّحيح، ومنَ الشرَّعِ نقْلٌ وعقْلٌ:

١)– أمَّا العَدْلُ في مُحيطِ النَّقْل: فالتزامُ مَا صَحَّ وصَرُحَ منَ الرِّوايَةِ في هَذا البابِ، وهوَ كثير﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ﴾ (الحَشر:٧).

٢) – أمَّا العَدْلُ في مُحيطِ العَقلِ: فمَنوطٌ بِقَيدَيْن مُتلازِمَيْن؛ أحدُهُما ضَمانُ النَّفعِ العَامِّ، والثَّاني مُقارَبةُ السَّداد:

أ– أمَّا النَّفعُ العامُّ: فيعنِي اجتِنابَ (الأثَرَة)، وهوَ معنًى لازمٌ:

– بدلالةِ (ميمِ الجَمْع) في آيَةِ التَّسخيرِ المُتقدِّمة﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ

جَمِيعًا﴾ (الجاثية:١٣)، وكذلكَ في قَولِه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرَة:٢٩).

– وبضَميمَةِ الحَالِ المُؤكِّدة (جميعَاً) [١] في الآيةِ السَّابقة، أيْ إنَّ الانتفاعَ بمَا تهيَّأ للنَّاسِ منْ نِعَمِ السَّمواتِ والأرضِ مُقيَّدٌ بكَونِه عامَّاً يَطالُ المَجمُوعَ، سواءٌ أكانَ جلْباً لِمَصلَحةٍ أمْ درْءاً لِمَفسَدة، وإنْ كانَ خاصَّاً فهوَ مقيَّدٌ بمُراعَاةِ المَجمُوعِ وبعدَمِ إلحاقِ ضَررٍ أو مَفسَدةٍ بهِم، وذاكَ أنَّ المصلحةَ العامَّةَ مُقدَّمةٌ، وأنَّ درءَ المفاسِدِ مُقدَّمٌ كَذلك ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ (البقرة:٢١٩).

ب– وأمَّا السَّدادُ: فيعنِي:

– سَلباً: اجتِنابَ (العبَثِ)، وذلكَ بِتحرِّي الخيرِ والصَّوابِ والنَّفعِ الذي تَستَحسنُه فِطَرُ العُقلاء، علَى مُستَوى الأقوالِ والأفعالِ جميعاً، إنسانيَّاً وبيئيَّاً، فالعَدالةُ كُلٌّ لا يَتجزَّأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزَاب:٧٠– ٧١)، وفي الحَديث الشريف: (مَنْ قتلَ عُصفُوراً عَبَثاً عجَّ إلى اللهِ يومَ القيامَةِ يقُولُ: يا ربّ، إنَّ فُلاناً قتلَني عَبَثاً، ولَم يقتُلْني مَنفعةً)[٢].

وقالَ: (لا تتَّخذوا شيئاً فيهِ الرُّوحُ غَرَضاً –يعني عبثَاً–)[٣].

– وإيجاباً: السَّدادُ هُوَ الإتقَانُ والإحسَانُ، منْ حَيثُ كونُ السَّدادِ مُشتقَّاً من (السَّدِّ) الذي يَعنِي إغلاقَ الخَلَلِ ورَدْمَ الثَّلْم ورَتْقَ الفَتْقِ عَلى أحكَمِ وجهٍ وأحْسَنِه وأمثَلِه،

(١) حملتُها علَى الحاليَّة المؤكِّدة لضَمير الجمع، ويرَى غالبُ المفسِّرينَ أنَّها حالٌ مؤكِّدةٌ لِـ(مَا)، رُغم أنَّ (مَا) بذاتها تقتَضي العمُومَ في ظَرفِهَا المَقيِّد، وأظنُّ أنَّ الوجهَين محتمَلان. انظُر: تَفسير الرَّازي: ٢٧/ ٢٢٦، والكشَّاف: ٤/ ٢٩١، والبَحر المُحيط: لأبي حيَّان: ٨/ ٤٥.

(٢) أخرجه ابنُ حبَّان في الصَّحيح (٥٨٩٣)، والنَّسائي في السُّنن الكُبرَى (٤٥٣٥)، وأحمدُ في المُسند (١٩٤٨٨)، وغيرُهم.

(٣) أخرجهُ مُسلِمٌ (١٩٥٧).

وقَصدِي أنْ يكُونَ أيُّ تصرُّفٍ بشَريٍّ حيالَ بيئَته:

١- تامَّاً (غيرَ مُختَلٍّ ولا مَؤوفٍ)، ٢- وكَاملاً (غيرَ منقُوصٍ ولا مَجزُوء).

وبِهَذا جَاءَ البيَانُ النَّبويُّ آمراً وداعياً: (إنَّ الله يحبُّ إذَا عمِلَ أحدُكُم عَملاً أن يُتقِنَهُ، وفي روايةٍ: أنْ يُحسِنَ)[١]، (فَإنَّ الله كتبَ الإحسَانَ علَى كُلِّ شَيء، فإذا قَتلتُم فأحسِنُوا القِتلَةَ، وإذا ذبحتُم فأحسِنُوا الذِّبحَةَ، وليُحِدَّ أحدُكُم شفرَتهُ، وليُرِحْ ذبيحَتَهُ)[٢]، نَعَمْ، إنَّها مَسؤوليَّةٌ يتحمَّلُها الإنسَانُ حيالَ كلِّ شَيءٍ في بيئَته، حتَّى البَهائم والبِقَاع[٣]، فالعَدالَةُ لا تُؤخَذُ تفاريق، والظُّلمُ ظُلمٌ مَهما استَصغَرتَ محلَّهُ، يقولُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ: (والله لو أُعطيتُ الأقاليمَ السَّبعةَ بما تحتَ أفلاكِها عَلَى أنْ أعصِيَ اللهَ في نملَةٍ أسلُبُها جُلْبَ شَعيرَةٍ مَا فعلتُه)[٤]، وأجمِل بقَولِ مَن قالَ:

لَا تُؤذِ نَمْلاً إنْ أرَدتَّ كَمالَك  فإنَّ لَهَا نفسَاً تَطيبُ كَما لَك[٥]

وتأمَّلْ هَذا الهديَ النَّبويَّ الرَّائقَ الذي يَرشَحُ ذَوقاً عَجَباً، فقَد جَاءَ في السِّيرَةِ العَطِرَة أنَّ النَّبيَّ ﷺ غَدا يَوماً إلى قَبرِ ابنِه إبرَاهيمَ رضيَ اللهُ عنهُ، فَرأى فُرجةً في القَبر -أيْ خَلَلاً- ، فأَمرَ بِهَا أن تُسَدَّ، وفي روايةٍ أنَّهُ أصلَحهَا بنَفسه، فَسُئِلَ عن ذلك، فقال: (أمَا إنَّها لا تَضرُّ ولا تنفَع -يَعني بالنِّسبةِ للميِّت-، ولكنَّها تُقِرُّ عينَ الحيِّ، وإنَّ الله يُحبُّ إذا عَمِلَ أحدُكُم عمَلاً أنْ يُتقِنَهُ)![٦].

---

(١) أَخرجهُ الطَّبرانيُّ في الأوسَط (٧٩٨) والكبير (٧٧٦)، وأبو يَعلى (٤٣٨٦)، والدَّيلميُّ (٥٧٥)، والبيهقيُّ في الشُّعب (٥٣١٤).

(٢) أَخرجهُ مُسلِمٌ (١٩٥٥)، وأَصحابُ السُّنن وأحمد وغيرُهم، ولفظُ مُسلمٍ (الذَّبح)، وما أثبتناهُ عندَ الترمذيِّ والنَّسائي وأحمد.

(٣) كما رُوِيَ عن عليٍّ ﷺ. انظُر: تاريخ الطَّبري: ٢/ ٧٠١، والبداية والنِّهاية: لابنِ كثير: ٧/ ٢٢٧، ونَهج البلاغة: باب الخُطب (١٦٧)

(٤) انظُر: خُلاصَة الأثر: ١/ ٢٠٦، ونهج البلاغَة: باب الخُطَب، رقم (٢٢٤)، وجُلْبُ الشَّعيرة قشرتُها.

(٥) انظُر: رُوح البَيان في تفسير القُرآن: لإسماعيل حقِّي البروسَوي (١١٢٧هـ): ١٠/ ٢٦١، تَح: عبد اللَّطيف حسَن عبد الرَّحمن، بيروت، دار الكُتب العلميَّة، ٢٠٠٠م. ولَم أقِفْ على قائِل البَيت.

(٦) أَخرجهُ الطَّبرانيُّ في الكبير (٧٧٦)، وابنُ سعدٍ في الطَّبقات: ١/ ١٤٣، ٨/ ٢١٥، وابنُ عبد البرِّ في الاستيعَاب: ٤/ ١٨٦٨، وأبو يعلى في المُسند، كذا في مجمَع الزَّوائد: ٤/ ٩٨. وقد أجادَ المتنبِّي (ت: ٣٥٤هـ) يومَ قال: (ولَمْ أرَ في عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئاً / كَنَقْصِ القَادِرينَ عَلَى التَّمام).

تلكَ هيَ –علَى الإجمالِ– أهمُّ ضَوابطِ المنهَجِ المَشرُوعِ في التَّعامُل معَ البيئَةِ بكُلِّ مفاريدِهَا وعنَاصِرِها، وهوَ –كَما ترَى– منهَجٌ يَتجَانفُ عَنْ معَاطِنَ الظُّلمِ في المَسلَك السَّابق بنَحوٍ بيِّن.

– ثالثاً: الأُسلُوب: أمَّا أسلُوبُ الرِّفقِ والارتفَاقِ البيئيِّ فهُوَ في مُجمَلِه تَحَلٍّ بالأسلُوبِ الإلهيِّ العامِّ في تَسييرِ الكونِ وتَسخيرِه، والذي بيَّنَهُ القُرآنُ بقَولِه﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (المُلك: ١٤)، وهوَ تَحلٍّ عَلَى مُستَوى الأداةِ، وعَلَى مُستَوى الهَيئة:

١– أداةُ الارتِفَاق (مِنْ وَحيِ اسمِ اللهِ الخَبير العَليم):

وقَصدِي بهَا العِلمُ إلى حدِّ الخِبرَةِ والبرَاعَةِ والضَّلاعَة، ولقَد غدَتْ حضَاراتُ اليوم تتقَايسُ ارتِقاءً وانحِطاطاً تبَعاً لما بينهَا مِنْ فَجَوَاتٍ علميَّة لا فجَوَاتٍ اقتصَاديَّة (ماليَّة)[١]، وبعبَارةٍ أُخرَى: صَارَ العلمُ رايةَ الحضَارَةِ وعَصَبَ التقدُّمِ في تَقديرِ الأُمم[٢]، واستتبَّ كثيرٌ منَ المذاهبِ الحَضَاريَّةِ عَلَى حقيقَةِ القُرآن﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الزُّمر: ٩)، فلَمْ يعُد الترَّفُ سِوَى نَذيرِ تخلُّفٍ وبَوَار، وقَد أصَابَ عليٌّ ﷺ هَذه الحقيقةَ يومَ قالَ: (العِلمُ خيرٌ منَ المَال، العِلمُ يحرُسُكَ وأنتَ تحرسُ المَالَ، والعلمُ يَزكُو عَلَى العمَل، والمالُ تَنقُصُه النَّفقة)[٣].

أجَلْ، إنَّ تحصيلَ تِلكَ الأداةِ، أداةِ العِلمِ –ضِمنَ ضَوابطِ المَنهَجِ السَّالف– واجِبٌ شَرعيٌّ مُطلَقٌ بلا حُدود، بلْ إنَّ الاستزادةَ منهُ دَأْبُ الأنبيَاءِ منْ قَبلُ، ولا تَزالُ دأْبَ رادَةِ الحضَاراتِ على مرِّ القرون﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ (طه: ١١٤).

---

(١) بحسَبِ تَقرير التَّنمية الإنسانيَّة العربيَّة لعام ٢٠٠٢م: تحتَ عنوان (مُجتمعُ المعرفَة واستيعَابُ المعرفَة)، نادر فرجاني، نَشر: برنامج الأمم المُتَّحدَة الإنمائي والصُّندوق العربيِّ للإنماء الاقتصاديِّ، ط١، ٢٠٠٢م.

(٢) بلْ إنَّ ما يَعترضُ الحضارةَ من مُشكلات واضطرابات لا يَنصرفُ بسوَى سُلطانِ العلمِ الرَّاسخ، وقد قدَّم القرنُ المعاصرُ نماذجَ حضاريَّةً رائدَة، دخلَت التَّاريخَ من بابةِ العلمِ ودَعم الميزانيَّاتِ العلميَّة على تنوُّع وجهاتها، ومثالُ (ماليزيا) و(كوريا الجنوبيَّة) وأشباهُهما شَاهدٌ واقعيٌّ في هذا الشَّأن.

(٣) أخرجَهُ أبو نُعيم في الحلية: ١/ ٨٠، وانظُر: فَيض القدير: ٦/ ٢٩٥، ومفتاح دار السَّعادة: لابن القيِّم: ١/ ١٢٣، ونَهج البلاغة: الحِكَم (١٤٧).

ولَستُ إخَالُ ذا نَصَفٍ يُمَاري في أنَّ دِيناً أو مَذهَباً قَدْ قدَّرَ العلمَ وأكبرَ أهلَهُ بمثلِ مَا فعلَ الإسلامُ إذْ جعلَه صِنوَ الإيمان﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (المجادلَة:١١)، حتَّى لقَدْ ألقَى عَلى العلمِ هالَةَ القَداسَةِ والحُرمَةِ إذْ جعلَهُ -بمَداليلِه البيئيَّةِ وغيرِهَا- سَبيلَ الإيمانِ ومَسلَكَ التَّوحيدِ، فأحالَهُ -بكُلِّ فُرُوعِه- عِلْماً شَرعيّاً واجباً، بلْ شَريفاً، وشَواهدُ هَذا البَابِ وافيةٌ ضَافيةٌ:

- بدْءاً بأوَّلِ أيَةٍ مُنزَّلَة﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلَق:١) حيثُ تضَامَّتْ حكمَةُ السَّماءِ وعلومَ الأرضِ، وألْقَحَ سرُّ الرُّبوبيَّة مَظهَرَ الخَلْق، في نظَامٍ مَعرِفيٍّ فريدٍ وبَديع، وأُمِرَ المُكلَّفونَ باكتشافِ[1] حقَائِق الكائناتِ ونَواميسِ الأكوانِ، عَلى سَبيلِ الفرضيَّةِ، فغدا ذلكَ الأمرُ رُكناً رَكيناً من أركانِ الدِّينِ الحَنيف.

- مُروراً بنَظائِرِ تلكَ الآيَةِ العُنوان، كآيةِ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فَاطر:٢٨)، معَ لَحْظِ أنَّهَا جاءَتْ في سِياقٍ بيئِيٍّ، تَنبيهاً عَلى طَريقِ الإيمَانِ والخَشيةِ الأسَدِّ والأرشَد.

- وهكَذا إلى مَا لا يُحيطُ بهِ بَشَرٌ منْ أسرَارٍ كامِنَةٍ ودِلالاتٍ ظَاهِرةٍ في كتَابِ الله وسُنةِ مُصطَفاه ﷺ، ممَّا لا يَزالُ المتفكِّرُونَ يُفيضُونَ فيه، دَعوَةً وامتثَالاً واستنبَاطاً، عَلى تعاقُبِ آمَادِهم؛ منْ حينِ عَهدِهم بكَلِمَة (اقرأْ) إلى مَا يَشَاءُ الله، وحَسبُك أنْ تعلمَ -علَى سَبيلِ الإلمَاح- أنَّ مَادَّة (العِلْم) باشتقَاقاتِها قدْ وردَتْ في القُرآنِ الكَريمِ لُهاءَ سَبعمائةٍ وسبعينَ مرَّةً وازدادتْ تِسْعاً!.

---

(١) القراءَةُ في بَعضِ معناهَا إظهارٌ وإبرازٌ وكشفٌ، كما قيلَ في وصفِ النَّاقة: لَمْ تَقرَأ جنيناً أي لَم تُنتج، ومنه النُّطقُ بكلامٍ مكتوبٍ أومحفوظ، وقولُهُ: (الذي خلَقَ): إمَّا أن لا يُقدَّر لَهُ مَفعولٌ تنبيهاً عَلى استئثارِ الله بالخَلقِ، أيْ لا خالقَ سواهُ، وإمَّا أن يُقدَّر لهُ مفعولٌ فيُرادَ به كلُّ شيءٍ تنبيهاً علَى شُمولِ القراءَةِ المأمورِ بها لكلِّ أصنافِ الخَلقِ ومظَاهرِ الكَون، وهذا علَى تقدير جُملَة (الذي خلَق) مفعولاً لِـ(اقرأ)، كما نبَّه عَلَى ذلك النَّسفيُّ في تَفسيره: ٤/ ٣٤٨، وهوَ تنبيهٌ وجيهٌ، بجانبِ ما هوَ مُقدَّرٌ لدى غالبِ المُفسِّرينَ، منْ أنَّ مفعولَ (اقرَأ) هوَ القُرآنُ، تقديراً مُستقلاً، أيْ اقرأ ما سَنُلقيه إليكَ من القُرآن، وأظنُّ المُقدَّرَ (القُرآنَ) لا يَستقيمُ مَشمُولاً بـ(الذي خلَقَ) إلاَّ عَلى مذهَبِ المُعتَزِلة. انظُر: البحر المُحيط: لأبي حيَّان الأندلسي: ٨/ ٤٨٧، وتَفسير البيضَاوي: ٥/ ٥٠٩، والكشَّاف: للزَّمخشري: ٤/ ٧٨١.

٢- هَيئةُ الارتِفَاق (مِنْ وَحي اسمِ اللهِ اللَّطِيفِ الرَّفيق) :

والرِّفقُ بَعضُ اللُّطفِ وجُزءُ معنَاه، وقَصدي بهِ التَّلبُّسُ بِهَيئَةِ الرِّفقِ والعَطفِ واللِّينِ في إعمَالِ أَداةِ (العِلْم) في البسَاطِ البيئِيِّ بحَذافيرِه وعناصرِه، دونمَا تفريقٍ بينَ سَاكنٍ ومُتحرِّك، أو بينَ خَفِيٍّ وجَليٍّ، فقَدْ قِيلَ قَديمَاً: (الرِّفْقُ رَأسُ الحِكْمَة)[1].

وهَديُ النَّبيِّ ﷺ في هَذا البَابِ ظَاهرٌ بلْ بَاهِر، ولا سيَّما نظَائرُ قولهِ ﷺ:

١- (إنَّ اللهَ رَفيقٌ يُحبُّ الرِّفقَ في الأَمرِ كلِّه).

٢- (مَنْ أُعطيَ حظَّهُ منَ الرِّفْقِ أُعطِي حظَّهُ منَ الخَير، ومَنْ حُرِمَ حظَّهُ منَ الرِّفْقِ حُرِمَ حظَّهُ منَ الخَير).

٣- (ومَنْ يُحرَمِ الرِّفقَ يُحرَمِ الخَيْر).

٤- (إنَّ الرِّفْقَ لا يكُونُ في شَيءٍ إلاَّ زانَهُ، ولا يُنزَعُ منْ شَيءٍ إلاَّ شَانَهُ).

٥- (إنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحبُّ الرِّفْقَ ويُعطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعطِي عَلَى العُنْف، ومَا لا يُعطِي عَلَى سِوَاه).

٦- (ومَا أُعطِيَ أهلُ بَيْتٍ الرِّفقَ إلاَّ نفَعَهُم، ولا مُنِعُوهُ إلا ضرَّهم).

٧- (الرِّفقُ يُمنٌ والخُرْقُ شُؤمٌ، وإذا أرادَ اللهُ بأهلِ بيتٍ خَيراً أدخَلَ عليهِمُ الرِّفْق)[2].

وشَرائعُ الإسلامِ كافَّةً -حتَّى مَا يَشتَبِهُ ظَاهرُه في هذا السِّياق- ، لَوْ خَبرْتَهَا أو سألْتَ بِهَا خبيراً، لوَجَدتَّهَا معقُودةً عَلَى ذَوْبِ رفقٍ ورحمَة، وكَذلكَ الدَّاعي إليهَا والمؤمنُ بهَا، لا بدَّ وأنْ يشتَملَ علَى مثلِ هَذا الخلُقِ الأسَاس، يقُولُ الشَّاطبيُّ: (وقَدْ ثبَتَ أنَّ الشريعةَ

---

(١) انظُر: الدرّ المنثُور: ٢/٦٧، ويُروَى علَى أنَّه في التَّوراة كما عندَ ابنِ أبي شيبة في المُصنَّف (٢٥٣٠٨)، ويُروَى علَى أنَّه من كلامِ النَّبيِّ ﷺ كما عند القُضاعي في مُسند الشِّهاب (٥١)، والأوَّل أرجَح، والله أعلَم. انظُر: النُّخبة البهيَّة: لمحمَّد الأمير الكَبير المالكي: ص٦٥، وكشف الخَفاء: ١/٢٢٦.

(٢) على الترتَّيب: الأوَّل أخرجهُ البخاريُّ (٦٥٢٨)، والثَّاني أخرجهُ التِّرمذي (٢٠١٣) وسِواهُ، والثَّالث أخرجهُ مُسلمٌ (٢٥٩١)، وكذلك الرَّابع (٢٥٩٤)، والخامِسُ (٢٥٩٣)، أمَّا السَّادسُ فأخرجهُ الطبرانيُّ بإسناد جيِّد في الكبير (١٣٢٦١)، وابنُ عبد البر في الاستيعَاب (١٧٢٢)، وابنُ قانِع في مُعجم الصَّحابة (٦٦٤)، والسَّابعُ أخرجهُ الطَّبرانيُّ في الأوسَط (٤٠٨٧)، والبيهقيُّ في الشُّعب (٧٧٢٢).

مَوضُوعةٌ علَى قَصدِ الرِّفقِ والتَّيسِير)[1].

نعَمْ، إنَّ الرِّفقَ مَعنًى أصِيلٌ قائِمٌ في بُنكِ (أَصلِ) شَرائِعِ الإسلام جميعِها، ومنهَا هَدْيُه في التَّعاطي معَ أصنافِ الموجُوداتِ في مُحيطِ البيئَةِ بأسرِها، وهُو أسلُوبٌ رَشيدٌ يتنكَّبُ عنْ أساليبِ الجهَالةِ والخُرْقِ[2]، تلكَ التي يَستَبيحُهَا مَسلَكُ الصِّراعِ والقَهْر، فالرِّفقُ في أيِّ حضَارةٍ إنسَانيَّةٍ بَشيرُ يُمْنٍ، والخُرْقُ نَذيرُ شُؤْمٍ.

إنَّ مَسلَكَ الرِّفقِ والارتفَاقِ الذي نُشيرُ إليه فيمَا هٰهُنا، أسلُوبَاً ومنهَجَاً ومُشرِّعاً، هوَ العتَبةُ الأساسُ في مَدرَجَةِ العَدْلِ الذي يجبُ أنْ تفيءَ إليه حضَارةُ الإنسَانِ، لتتغيَّا به في مَسلكِها تُجاهَ البيئَةِ ومَا فيهَا مِنْ أشياءَ وأحيَاء، أمَّا الشَّأوُ الأعلَى لذاكَ المَسلَك فيتَّسعُ اتِّساعَ الإبدَاعِ الإلهيِّ، واتِّساعَ رحمَته العامَّة كذلك، فتراهُ يتجَاوزُ طَوْرَ الارتفَاقِ البَسيطِ السَّاذجِ المَحدُودِ إلى طَوْرِ الإبدَاعِ السَّنيِّ الوثَّاب، والجمَالِ السَّخيِّ الهتَّان، بما يبُثُّهُ في أطنَابِ الحضَارَةِ مِنْ رهَافَةِ إحسَاسٍ وفراهَةِ إعمَار، إلى أنْ تَأتيَ الحضَارةُ وكأنَّها شَامةٌ بينَ الحضَارات -بحَسَبِ التَّعبيرِ النَّبويّ[3]-، شَاهِدةً ببرَاعَةِ الخَلْق، وناطِقةً بجَمالِ الحقِّ: (فإنَّ اللهَ جميلٌ يُحبُّ الجمَال)[4].

كلُّ ذلكَ في مُحيطِ الغايَةِ التي نِيطَتْ بهَا رسَالةُ الإنسَان في دُنيَاه، وضِمنَ مُعادَلةٍ تَشريعيَّةٍ رَشيدةٍ، تُوازِنُ أبَداً بينَ تكَاليفِ البُنيَانِ وحاجَاتِ الإنسَان، وبينَ حقُوقِ السَّاجدِ وحقُوقِ المسَاجِد، وأَقصدُ المسَاجدَ في مَدلُولِها الأعمِّ، لتشمَلَ البسَاطَ البيئيَّ بكُلِّ أبعادِه، بقَرينَةِ العبَارةِ النَّبويَّة: (وجُعِلَتْ لنَا الأرضُ كلُّها مَسْجِداً وطهُورَاً)[5].

---

(١) انظُر: المُوافقات ٢/ ١٢٣، والاعتصَام: للشَّاطبي ١/ ٢١٥.

(٢) خَرِق (بالكَسر) يخرَقُ خَرَقاً، والاسمُ الخُرْق، والأخرقُ ضدُّ الرَّفيقِ، وهو الأحمقُ الذي يفتقدُ الحكمةَ والرويَّة، وخَرِق بالشَّيءِ جهلَه ولمْ يُحسِنْ عملَه، والخِرْقُ أيضاً بالكَسر: الكريمُ الذي يتخرَّقُ في الكرَم، إذا توسَّع فيه. انظُر مادَّة (خرق) في: العَين: ٢/ ١١٣، والصِّحاح: ١/ ١٦٩، واللِّسَان: ١٠/ ٧٣.

(٣) في الحديث الشريف: (إنَّكم قادمُونَ علَى إخوَانكُم، فأَصلِحُوا رحالَكُم، وأَصلِحُوا لباسَكُم حتَّى تكُونوا كأَنَّكُم شَامةٌ في النَّاس). أخرجهُ أبو داود في السُّنن (٤٠٨٩)، والحاكمُ في المستدرَك (٧٣٧١)، وابنُ أبي شيبةَ في المُصنَّف (١٩٥٢٤)، وسِواهُم.

(٤) أخرجهُ مُسلمٌ (٩١).

(٥) (فُضِّلْنا علَى النَّاس بثلاثٍ: جُعلَتْ صفوفُنا كصُفوفِ الملائِكَة، وجُعلَتْ لنا الأرضُ كلُّها مَسجداً وجُعلَتْ=

وأيمُّا اختلالٍ في تلكَ المعادلَةِ الحضَاريَّة الموزُونَة، أو هَضم لتلكَ الحقُوقِ الواجبَة، إنمَّا ينكُتُ في صَفحَةِ الحضَارةِ نُكْتةً سَودَاء، حتَّى يكُونَ (التَّطَاوُلُ في البُنيَانِ)[1] مَثَلاً، إذْ يَأتي عَلى مَصلَحةِ الإنسَانِ وأمْنِه ورسَالَته، أمَارةَ ترَفٍ ذَميم، رُغمَ كونِه -في حدِّ ذاتِه- أمراً مَشرُوعاً، ولعلَّ في هَذا ما يُفسِّرُ لنَا كيفَ يكُونُ الماءُ الغَدَقُ محلَّ فِتنةٍ ومحكَّ ابتِلاء﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾!(الجنّ:١٦-١٧).

**شهادةُ المحيطِ البيئيِّ:**

صفوةُ القول في هذا الباب أنَّ العَدلَ غايةٌ جامعَةٌ لكلِّ القِيَم الحضَاريَّة، وأسَاسٌ لازمٌ لِكلِّ فِعلٍ حضَاريٍّ، إنْ عَلى مُستَوى الاجتمَاع البشَريِّ (الأنفُس)، أو عَلى مُستَوى الاجتمَاع الحيَويِّ البيئيِّ (الآفاق)، فَللكلِّ -ابتداءً وانتهاءً- حقُوقٌ تَجبُ رعايتُها وصِيانتُها ولا سيَّما إذا عَلِمْنَا أنَّ لتلكَ المُجتمعَاتِ -بفَرعَيْها وبمفَاريدِها- شَهادةً عَلى الإنسَانِ وعلَى حضَارته، يُسجِّلُها التَّاريخُ لهُ أو علَيه، ويُحاسَبُ بهَا أمامَ الأجيَالِ في دُنيَا النَّاس، وأمامَ الأشهَادِ في الآخرَة:﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ (الزُّخرُف:١٩).

وقَد أنبأنَا الشَّارعُ الحَكيمُ صُنوفاً منْ تلكَ الشَّهادات، نُشيرُ من بينِها إلى (شَهادَةُ المُحيطِ البيئيِّ) بكُلِّ مَا فيه منْ أشْيَاءَ وأَحْيَاء، جملةً وتَفصيلاً﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (الزَّلزلة:١-٤)، وفي الحَديثِ الشريفِ: (أَتَدرُونَ مَا أخبارُهَا؟، قالُوا: اللهُ ورسُولُه أعلَمُ، قالَ: فإنَّ أخبارَهَا أنْ تَشْهَدَ عَلى كُلِّ عَبدٍ أوْ أَمَةٍ بمَا عَمِلَ عَلى ظَهرِهَا، تقُولُ: عَمِلَ كَذا وكَذا في يَومِ كَذا وكَذا. فهَذِه أخبارُهَا)[2]، وفي الشرَّعِ الحنيفِ نماذجُ شتَّى للشَّهادَةِ التي تضطَّلعُ

=تربتُها لنَا طَهوراً إذا لَم نَجد الماءَ، وذكرَ خَصلَةً أُخرى). أَخرجهُ مُسلِمٌ واللَّفظُ له (٥٢٢)، والبخاريُّ (٣٢٨).

(١) وقدْ جُعلَ ذلكَ أمارةً من أَمارات اقترَاب السَّاعة، إذْ تَشيعُ مظاهرُ الفسَاد والترَّف، كَما في حديث جبريلَ عليه السَّلام يومَ سألَ النبيَّ ﷺ قائلاً: (فأخبرني عنْ أمارَاتِها -يَعني السَّاعة-، قال: أنْ تَلدَ الأمَةُ ربَّتَها، وأنْ ترَى الحُفاةَ العُراةَ رِعَاءَ الشَّاء يتَطاولُونَ في البُنيان). أَخرجهُ مُسلِمٌ (٨)، وفي روايةٍ لَهُ (١٠): (وإذا رأيْتَ الحُفاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكمَ مُلوكَ الأرضِ فذاكَ منْ أشراطِها، وإذا رأيْتَ رِعاءَ البُهَم يتَطاولُونَ في البُنيانِ فذاكَ منْ أشرَاطِها).

(٢) أَخرجه أحمدُ (٨٨٥٤)، والتِّرمذيُّ وصحَّحَه (٣٣٥٣)، والنَّسائيُّ (١١٦٩٣)، والحاكمُ=

بها البيئةُ الحيَويَّة، منهَا -على سَبيلِ التَّمثيلِ-:

أ- شَهادةُ دابَّةِ الأَرض ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (النَّمل:٨٢)، جاءَ في الأثَر أنَّها تكلِّمهُم وتنبِّئُهُم وتُحدِّثُهم-كما في قراءَةِ ابنِ عبَّاسٍ ﷺ وتَقولُ: ألَا لعنةُ اللهِ عَلَى الظَّالمين[1].

ب- شَهادَةُ الأنعَام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ (البقَرة:١٥٩)، واللاَّعنونَ لفظٌ عامٌ يدخُلُ فيه الملائكةُ والنَّاسُ والأنعَام ودوابُّ الأرض والجمَاداتُ وكُلُّ شَيءٍ[2]، وقالَ: اللاَّعنُون، ولم يقُلْ: اللاَّعنَات، وَصْفاً لِها بِصفَةِ مَنْ يَعقِلْ، وهُيَ (أي البِقاعُ والدَّوابُّ) إنمَّا شارَكَتْ في اللَّعْنِ والسُّخْطِ لمَا يَلَحَقُهَا مِنْ جَدْبٍ وبُؤسٍ وتخلُّفٍ وإهمَال، منْ جرَّاءِ كتمانِ الحقِّ، وإخسَارِ ميزَانِ العَدل.

وبعدُ، فإنَّ استحضَارَ نظائرِ هَذي الشَّهاداتِ علَى اختلَافِ مظَاهرِهَا لا شَكَّ قمينٌ بأنْ يَدُرَّ عُرُوقَ التَّمكينِ في الحضَارَة، بِمَا يبُثُّهُ في وَعيهَا وثَقافَتهَا مِنْ حسٍّ صَادقٍ وبليغٍ بِمَسؤوليَّةِ العَدلِ في أوجُهِ الحيَاة كافَّةً، فَكُلُّ شيءٍ في الكَونِ يَهتفُ بذاكَ العَدلِ ويَرجُوهُ، أمَلاً في أنْ تَشيعَ في جَنبَاتِ الحضَارةِ حَالٌ منَ الرِّضى والطُّمأنينَةِ والأمَان، تنتَظمُ النَّاسَ والأحيَاءَ والأشيَاء، فتشدُّهُم بَعضَاً إلى بَعضٍ، وتُؤمِّنُهمْ بَعضَاً مِنْ بَعضٍ، فَتقيهِمْ غوائِلَ التفكُّكِ والشَّتات، وطَوارِقَ الخوفِ، ومَصَائِرَ الانحلَال.

نَعَمْ، لا شيءَ أدعَى إلى نَشرِ رايَاتِ الأمَانِ مِنْ تَبنِّي العَدلِ غايَةً جُلَّى في كُلِّ فعلٍ حَضَاريٍ، صَغيرٍ أو كبيرٍ، ومَن ضَاقَ علَيهِ العدلُ فالظُّلمُ عَليهِ أضيَق، فالظُّلمُ والأمنُ

---

=وصحَّحهُ (٣٠١٢)، وسوَاهم.

(١) وذلكَ (حينَ لا يَعرفونَ مَعرُوفاً ولا يُنكِرونَ مُنكَراً، وحينَ لا يأمُرونَ بالمعرُوفِ ولا ينهَونَ عن المُنكَر). كما في مُصنَّف ابنِ أبي شَيبة (٣٧٥٧٥)، ومُستدرَك الحاكم (٤/ ٥٨٩)، وانظُر: تَفسير الطَّبري ٢٠/ ١٤، وابن كثير: ٣/ ٣٧٧، والدرّ المنثُور: ٦/ ٣٧٧. وفيه عن أبي نُعيم ابنِ حمَّاد وابنِ مردويه عَن النَّبيِّ ﷺ: ليسَ ذلكَ حديثاً ولا كَلاماً، ولكنَّها سِمةٌ تَسِمُ مَنْ أمرَها اللهُ به.

(٢) انظُر: الدرّ المنثور: ١/ ٣٩٠، وتَفسير ابنِ أبي حاتم: ١/ ٢٦٩، وتَفسير الطَّبري: ٣/ ٢٥٦، وتَفسير الرَّازي: ٤/ ١٤٩، والبحر المُحيط: ١/ ٦٣٤.

لا يجتَمِعَان﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقَرة:١٢٤)، والعَهدُ ههُنا -مِنْ جُملَةِ ما قيلَ- هوَ الأَمْن[1]. ويَقينِي.. أنَّ الإسلامَ في شَريعَتِه الكونيَّةِ العادلَة قَد قصَدَ إلى خلْقِ حَضَارةٍ إنسَانيَّةٍ آمنَةٍ سَعيدَةٍ راضيَة، وقَدْ نجَحَ أيمَّا نجَاح، ولَكَ أنْ تَقِفَ عَلى تَفاصِيلِ شَريعتِهِ المُعجِزَة لتَجدَ الأمرَ فوقَ مَا أقولُ..، لا بلْ فَوقَ ما تَحسَب.

(١) بقَرينة الآية التَّالية لَها ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾(البقرَة:١٢٥). انظُر: تَفسير البغَوي: ١/١١٢، وتَفسير السَّمعَانِي: ١/١٣٦.

## الخاتمَة

وفيما يأتي خُلاصَاتٌ لِما تقدَّمَ بحثُهُ وبيانُه:

أولاً: مفهومُ البيئةِ في الرُّؤيةِ الإسلاميَّة مفهومٌ واسعٌ يَصدقُ على كلِّ عناصرِ الكونِ ومَفاريدِه، وفي القُرآنِ الكَريمِ وكذا في السنَّة المطهَّرة، تَصريحٌ وتَعريضٌ بتلك العنَاصرِ ومظاهِرِهَا ووظائِفِها وتسخيرِها للإنسان بنَحوٍ وافرٍ وجَليٍّ، وذكرٌ لأصنَافِ المخلوقَاتِ وتنويهٌ بأضْرابِ الكائنَاتِ بِصُورة لافتَةٍ ومَادَّةٍ غزيرَة، ولا ريبَ في أنَّ ذلك قَد سِيقَ -منْ غيرِ مريَةٍ- لغايَاتٍ بليغَةٍ، لعلَّ منهَا توسيعَ حُدودِ التَّصورِ البيئيِّ، وتأصيلَ ذلكَ في وَعيِ المُخاطَبِ، وتَعميقَ إحسَاسِه بحياةِ الموجُوداتِ منْ حولِه، وتمتينَ إيلافِه بهَا، وإحداثَ علاقةٍ تشريعيَّة بينَهُ وبينهَا فوقَ العلاقةِ الطَّبيعيَّة القائمةِ بطَبيعةِ الحَال.

ثانياً: تقومُ المحدِّداتُ المنهجيَّة للتصوُّرِ البيئيِّ القويمِ في الرُّؤية الإسلاميَّة على ثلاثيَّة: الحقِّ، والتَّقديرِ، والحكمة، وهي ثلاثيَّةٌ اعتقاديَّةٌ إيمانيَّةٌ يتأسَّسُ عليها العَدلُ في الآفاق أو البيئة، الذي هو تكليفٌ دينيٌّ وواجبٌ شَرعيٌّ ومَسؤُوليةٌ خلُقيَّةٌ يتحمَّلُهَا الإنسَانُ تُجاهَ بيئَتِه، بِكُلِّ ما فيهَا مِنْ كائناتٍ وأحيَاء، ومَنشَأُ هَذا الوَاجبِ هُوَ ضرورةُ (احترام) الكائنَاتِ التي تُشاركُ الإنسانَ الوُجودَ، والنَّظرُ إليها كمَوجوداتٍ ذاتِ قيمةٍ ذاتيَّةٍ، لها وجودُها المُستقلُّ والمُعتَبَرُ، كمَا الأشخَاصُ، مِنْ حيثُ هيَ خلقٌ مِنْ خَلقِ الله تعَالى، فمَنْ شَهِدَ الصَّانِعَ لَمْ يَعِبِ الصَّنعَة، بل يَستَحسِنُها ويُوقِّرها ويَحترمُها إجلالاً لصانِعها.

ثالثاً: الإنسانُ في بيئَتِه جُزءٌ مِنْ كُلٍّ، فهو كغيرِه منَ الكائناتِ الحيَّةِ بَعضٌ مِنْ أبعَاضِ مُجتمَعِ الحياةِ، يُشاركُها الوجودَ ويُعاطيها أسبابَهُ، ويُماثلُها ويُقايسُها بجَامعِ علَّةِ (المخلوقيَّةِ لله تعَالى)، فمُجتمَعُ الحيَاةِ هَذا كُلٌّ، والأحيَاءُ والكائناتُ فيه أجزاءٌ، وبينهُما تواصُلٌ وَثيقٌ، فَما يُصيبُ الكُلَّ يَطالُ الجُزءَ، وما يَعرُو الجُزءَ يُؤثِّرُ في الكُلِّ، على أنَّ لكُلِّ كائنٍ خُصُوصيةً مُستقلَّةً، مَبناهَا أنَّ لهُ غايةً مُعيَّنةً وأُسلُوباً خاصاً في بلُوغِ هَذه الغايَة، بلْ لهُ فوقَ ذلكَ عِلمٌ بهَذه الغايَةِ وإدراكٌ.

رابعاً: إنَّ مناطَ التَّكريم والامتيَازِ البشَريِّ في مُجتَمَع الحيَاة هوَ التزامُ الإنسَانِ بما شَرعَهُ الوحيُ مِنْ أحكَام، والسَّيرُ في هَدي آيَاته وسُنَنه النَّاظمَة والحافظَة لنظَام هَذا العَالَم الحيَويِّ الرَّحيب، بكُل آفاقه، فسَاحةً وعُمقاً وارتفاعَاً، وتَفريعاً علَى هذَا، في وُسعنَا القَولُ بأنَّ قَدرَ الامتيَازِ البشَريِّ يتناسَبُ طَرْداً معَ مقدَارِ الالتزَام بتلكَ الأحكَام ورعَايتهَا، والالتزامُ هَذا هُوَ عينُه العَدْلُ الذي نَقصدُه في الآفاق أو في البيئة، وتلكَ هيَ الرَّكيزةُ الفكريَّةُ التي تُقيمُ عليهَا الرُّؤيةُ الإسلاميَّة مذهبَها في (احترَام الطَّبيعة).

خامساً: علاقةُ الإنسانِ بمُحيطه البيئيِّ تتبدَّى في أحد مَسلَكَين اثنَين: إمَّا (القَهْر والعُنف)، وإمَّا (الرِّفق والارتفاق). أمَّا (مَسلَكُ القَهر والعُنف) فغالباً مَا يَفشُو في حضَارات الاستكبار والتَّخلُّف عبر الزَّمان، إنْ في ماضيه أوْ في حاضره، وهُو ناشئٌ عنْ توهُّم (الصِّراع) بينَ الإنسَانِ وبيئَته، بحسَب التَّعبير المُعاصر، وعنْ تظَننٌّ بانفراد الإنسَانِ في موقع السُّلطة على البيئَة، ومن ثَمَّ، لهُ استباحةُ كلِّ صُنوف التَّصاريف، حتَّى ما كانَ علَى سبيل القَهْر والقَسْر، والإعناء والإعنات، وهذا اغترارٌ مرفوضٌ بقَدَر التَّسخير، بلْ فَهمٌ سَقيمٌ لهُ ، وتَعسُّفٌ في استعمَال الحقِّ فيه، وهو ما تأصَّلَ ماضياً وحاضراً في مذهب جَهول ظَلوم هو مذهبُ (الصِّراع معَ البيئة أو الطَّبيعة).

وأمَّا (مَسلَكُ الرِّفق أو الارتفَاق) فيعني الانتفاعَ المشرُوعَ بالبيئَة، بأسَاليبَ علميَّة رَفيقَة، وهذَا يقتَضي (مُشَرِّعاً، ومنهَجاً مَشرُوعاً، وأُسلُوباً)، أمَّا المُشرِّع فهُوَ اللهُ عزَّ شأنُه، وذاكَ أنَّ صاحبَ الفعلِ الحقيقيِّ في التَّمكين والتَّخويل هُو ذاتُه صاحبُ الفعل الحقيقيِّ في الإيجاد والتَّكوين، ومِنْ ثَمَّ لهُ وحدَهُ حقُّ التَّعليم والتَّوجيه في هَذا الوجُود، وذاكَ أنَّ العقلَ البشَريَّ مُجرَّداً عَن هذا التَّوجيه الإلهيِّ لا يَستقلُّ بِدَرْك المصالح، ولا يَهتدي إلى وجُوه المنافع إلاَّ على نَحوٍ نِسبيٍّ أو قاصرٍ أو ظاهر.

وأمَّا المنهجُ أو المَشرُوعُ فهو منهجَ (العمارَة)، وهو عبارَةٌ عنْ (حرَكة إنسَانيَّة واعية قَادرَة خَيِّرة، تُحيلُ مادَّةَ الطَّبيعَة أشكَالاً حضَاريَّةً تَدعمُ وجُودَ الإنسَانِ ومعاشَهُ وإبداعَهُ وغايتَه)، على أنَّ هذه الحركةَ لا بدَّ أن تُضبَطَ بضابط (العَدل) في استغلال الخامات وإعمار القِفَار، والعدلُ انضباطٌ بحدود التَّوجيه الإلهيِّ في هذا لسِّياق المنوط

بقيدَين اثنَين هُما: إيثارُ النَّفع العامِّ على النَّفع الخاصِّ، ومقاربةُ السَّداد من خلالِ اجتناب العبَث وتحرِّي الإتقانِ والإحسانِ. وأمَّا أسلوبُ مسلَكِ الرِّفقِ والارتفاقِ فهو تحلٍّ بالأسلوبِ الإلهيِّ: على مستَوى (الأداة)، وهي أداةُ العلم الخبرةِ والبراعةِ، وعلى مستَوى (الهيئةِ)، وهي التلبُّسُ بحالةِ الرِّفق واللُّطف حيالَ حَذافيرِ البيئةِ وعناصرِها دونَما تَفريقٍ، فَـ(مَن يُحرَم الرِّفقَ يُحرَم الخيرَ) كما في المأثور النَّبويِّ. وهذا المَسلَكُ بمُقتضَياتِه وأركانِه مسلَكٌ رشيدٌ يتنكَّبُ مزالقَ الجهالةِ والظُّلم في المَسلكِ السَّابقِ.

سادساً: يَرجَحُ لدينا أنَّ هذه الرُّؤية البيئيَّة الإسلاميَّة في أبعادِها التَّصوريَّة والمَسلَكيَّة سببٌ مهمٌّ ومدخلٌ أساسٌ من مداخلِ (الأمنِ البيئيِّ) المَنشودِ حضارياً وعالمياً.

ويبقَى من وَصايا البحثِ أخيراً أن نُلمِحَ إلى ضَرورةِ نشرِ الوَعي البيئيِّ أوَّلاً، وإلى ضَرورةِ التَّنادي والتَّداعي لِصيانةِ البيئةِ ورعاية الآفاق ثانياً، ولا سيَّما في العصرِ الحاضرِ، على غِرارِ ما باتَ يُعرَفُ اليومَ بـ(إعادة الوِفاقِ معَ الطَّبيعة والتَّعايشُ معها بسَلام)، بعدَ أنْ بلغَت البشريَّةُ مرحلةً باتَت تَخشَى فيها عُدوانَ الطَّبيعةِ على الإنسانِ؛ في أمثالِ ظَواهرِ تلوُّثِ البيئة، وثُقبِ الأوزونِ، وشُحِّ الأمواهِ، والإرهابِ العائثِ فساداً، ونَحوِ ذلكَ ممَّا جرَّه الإنسانُ على نفسِه، فقد أضحَى من المأمولِ والمَروم أن يتَّحد بَنو البشرِ لِيواجِهُوا الشرُّورَ والكوارثَ التي تَتهدَّدُ البشريَّةَ جمعاء، والمقصودُ أن يحوِّلوا الاتِّجاهَ من صراعِ الحضاراتِ إلى تحاورِها فتَعاونِها، سَعياً لدرءِ عاديةِ الخطرِ الذي يتهدَّدُها دونما استثناء، تَماماً كما تعاوَنت فرقٌ مِن مختلفِ الأُمم والأَجناسِ (زُهاءَ سبعةٍ وعشرينَ فريقٍ دوليٍّ) لإطفاءِ الحريقِ المَشبوبِ في آبارِ النِّفطِ في الكويتِ (مطلعَ سنةِ ١٩٩١م)، وذلك بعدَ أن امتدَّ خطرُ تلوُّثِ البيئةِ آلافَ الأَميال، واستمرَّتْ عمليَّةُ الإطفاءِ نَحواً مِن (تسعةِ أشهُر)[1]..!

والحمدُ لله الذي بنَعمائِه تتمُّ الصَّالحاتُ.

---

(١) راجع: (جيرانٍ في عالمٍ واحدٍ)، وهو نصُّ تقريرِ لجنةِ إدارةِ شؤونِ المجتمعِ العالميِّ، المنبثق عن اجتماعٍ دولي في السُّويد سنَةَ (١٩٩١م)، ترجمة مجموعةٍ من المترجمينَ، سلسلَة عالم المعرفة، الكويت، رقم (٢٠١)، ١٩٩٥م.

# المَصادرِ والمَراجِع


**القرآنُ الكريمُ.**

**كتبُ التَّفسير والقِراءات:**

١. إتحافُ فضلَاء البشَر في القراءاتِ الأربعةَ عشَر: شهَاب الدِّين الدِّميَاطي (١١١٧هـ)، تَح: أنَس مُهرَة، بيرُوت، دار الكتُب العلميَّة، ١٩٩٨م.

٢. الإتقَان: جلال الدِّين عبدُ الرَّحمن بنُ أَبي بكر السُّيوطي (ت: ٩١١م)، تَح: سَعيد المندُوب، بيرُوت، دار الفِكر، ١٩٩٦م.

٣. إرشادُ العقل السَّليم إلى مزَايا القرآن الكريم (تَفسيرُ أَبي السُّعود): محمَّد بنُ محمَّد العمَادي (٩٥١هـ)، بيرُوت، دار إحيَاء التُّراث العربيِّ، د.ت.

٤. أَنوار التَّنزيل وأسرَار التَّأويل: ناصر الدِّين عبد اللهُ بن عمَر البَيضَاوي (٦٨٥هـ)، بيرُوت، دار الكُتب العلميَّة، ١٩٩٩م.

٥. البَحرُ المُحيط: أبو حيَّان الأندلُسيُّ محمَّدُ بنُ يوسُف (٧٤٥هـ)، تَح: عَادل عَبد الموجُود وعَلي معوَّض، بيرُوت، دار الكُتُب العلميَّة، ٢٠٠١م.

٦. تَفسيرُ ابنِ أبي حاتم: عَبد الرَّحمن بن محمَّد بن إدريس ابنُ أبي حاتم الرَّازي (٣٢٧هـ)، تَح: أسعَد محمَّد الطيِّب، صَيدا، المكتبَة العصريَّة، ٢٠٠١م.

٧. تَفسيرُ السَّمعَاني: أَبو المظفَّر مَنصُور بن محمَّد السَّمعَاني (٤٨٩هـ)، تَح: يَاسر ابن إبرَاهيم وغُنيم بن عبَّاس، الرِّياض، دار الوطَن، ١٩٩٧م.

٨. تَفسيرُ القُرآن العَظيم: أَبو الفِدَاء إسمَاعيل بنُ عَمرو بنِ كَثير الدِّمشقيُّ (٧٧٤هـ)، بيرُوت، دار الفِكر، ١٤٠١م.

٩. جامعُ البيَان عَن تَأويلِ آيِ القُرآن: أَبو جعفَر محمَّد بن جَرير الطَّبري (٣١٠هـ)، بيرُوت، دار الفِكر، ١٤٠٥هـ.

١٠. الجوَاهرُ الحِسَان في تَفسير القُرآن: أَبو زَيد عَبد الرَّحمن بن محمَّد الثَّعالبيُّ

(٨٧٥هـ)، بيرُوت، مؤسَّسة الأعلَمي للمَطبُوعات، ١٤٠٧هـ.

١١. الدرُّ المنثُور في التَّفسيرِ بالمَأثُور: جلالُ الدِّين عَبد الرَّحمن بنُ أَبي بكر السُّيوطي (٩١١هـ)، بيرُوت، دار الفِكر، ١٩٩٣م.

١٢. رُوح البَيان في تفسير القُرآن: إسماعيل حقِّي البروسَوي الحَنفيِّ (١١٢٧هـ)، تَح: عبد اللَّطيف حسَن عبد الرَّحمن، بيروت، دار الكُتب العِلميَّة، ٢٠٠٠م.

١٣. الكشَّافُ عَن حقَائق غَوامِض التَّنزيل: محمُود بنُ عُمر الزَّمخشري (٥٣٨هـ)، تَح: عَادل عَبد الموجُود، الرِّياض، مكتبة العبيكَان، ١٩٩٨م.

١٤. مَا دلَّ عَليهِ القُرآنُ ممَّا يعضدُ الهيئةَ الجديدةَ القَويمةَ بالبُرهان: مَحمُود شُكري الأَلوسي (١٣٤٢هـ)، بيرُوت، المكتبُ الإسلاميُّ، ١٩٧١م.

١٥. مفَاتيحُ الغَيبُ أَو التَّفسيرُ الكبير: فخرُ الدِّين محمَّد بن عُمر الرَّازي (٦٠٦هـ)، بيرُوت، دار الفِكر، ١٩٨٥م.

١٦. معَالم التَّنزيل: الحُسَين بن مَسعُود البغَوي (٥١٦هـ)، تَح: خَالد عَبد الرَّحمن العك، بيرُوت، دار المَعرِفة، ١٩٩٤م.

١٧. المُحرَّر الوَجيزُ في تَفسيرِ الكتَابِ العَزيز: عبدُ الحقِّ ابنِ عَطيَّةَ الأندلُسيُّ (٥٤٦هـ)، تَح: عَبد السَّلام محمَّد، بيرُوت، دار الكُتُب العلميَّة، ١٩٩٣م.

١٨. النَّشْر في القِراءاتِ العَشْر: شمسُ الدِّين أبو الخير ابنُ الجزريِّ، محمَّد بنُ محمَّد (٨٣٣هـ)،

١٩. تَح: علي محمَّد الضبَّاع، القاهِرة، المطبعة التجاريَّة الكُبرَى، د.ت.

**كتبُ الحديثِ الشَّريف والشُّروح:**

١. سُنَنُ أَبي دَاوُد: أَبو دَاوُد سُليمانُ بنُ الأشعَث السِّجستَانيُّ (٢٧٥هـ)، تَح: محمَّد مُحيي الدِّين عَبد الحَميد، بيرُوت، دار الفِكر، د.ت.

٢. سُنَنُ ابنِ ماجَه: أَبو عَبد الله محمَّد بنُ يَزيد بنِ مَاجَه القَزويني (٢٧٥هـ)، تَح:

محمَّد فُؤاد عَبد البَاقي، بيرُوت، دار الفِكر، د.ت.

٣. سُـنَنُ التِّرمذيِّ: أَبو عيسَى محمَّد بنُ عيسَى التِّرمذيُّ (٢٧٩هـ)، تَح: أَحمد محمَّد شَاكر وآخرُون، بيرُوت، دار إحيَاء التُّراث العربيِّ، د.ت.

٤. سُـنَنُ الدَّارَقُطْني: أَبو الحسَن عليُّ بنُ عُمَر الدَّارقُطني (٣٨٥هـ)، تَح: السيِّد عَبدالله هاشِم يمَاني المدَني، بيرُوت، دار المَعرِفة، ١٩٦٦م.

٥. سُـنَنُ الدَّارميِّ: أَبو محمَّد عَبد الله بنُ عَبد الرَّحمن الدَّارمي (٢٥٥هـ)، تَح: فوَّاز زمَرلي وخالِد العلَمي، بيرُوت، دار الكتَاب العربيِّ، ١٤٠٧هـ.

٦. السُّـنَنُ الكُبرَى: أَبو بَكر أَحمدُ بنُ الحُسَين البَيهقيُّ (٤٥٨هـ)، تَح: محمَّد عَبد القَادر عَطا، مكَّة المكرَّمة، مكتبَة دار البَاز، ١٩٩٤م.

٧. سُـنَنُ النَّسائيِّ الصُّغرَى (المُجتبَى): أحمدُ بنُ شُعيب النَّسائيُّ (٣٠٣هـ)، تَح: عَبدالفتَّاح أَبو غدَّة، حلَب، مكتَب المَطبُوعَات الإسلَاميَّة، ١٩٨٦م.

٨. سُـنَنُ النَّسائيِّ (الكُبرَى): أحمدُ بنُ شُعيب النَّسائيُّ (٣٠٣هـ)، تَح: عَبد الغفَّار البندَاري وسيِّد كسرَوي، بيرُوت، دار الكتُب العِلميَّة، ١٩٩١م.

٩. شُعَب الإيمان: أَبو بكر أَحمدُ بنُ الحُسَين البَيهقيُّ (٤٥٨هـ)، تَح: محمَّد السَّعيد بَسيُوني زَغلُول، بيرُوت، دار الكتُب العِلميَّة، ١٩٩٤م.

١٠. صَحيحُ البُخاريِّ: أَبو عَبد الله محمَّد بنُ إسمَاعيل البُخاريُّ الجعفيُّ (٢٥٦هـ)، تَح: د. مُصطَفى دِيب البُغا، دمشق، دار ابن كثير، ١٩٨٧م.

١١. صَحيحُ ابنُ حِبَّان (بتَرتيب ابنِ بلَبان): محمَّد بنُ حبَّان التَّميمي البُستي (٣٥٤هـ)، تَح: شُعَيب الأَرناؤوط، بيرُوت، مُؤسَّسةُ الرِّسالَة، ١٩٩٣م.

١٢. صَحيحُ ابنُ خُزَيمَة: أَبو بكر محمَّدُ بنُ إسحَاق بنِ خُزيمةَ السّلَمي (٣١١هـ)، تَح: مُصطَفى الأعظَمي، بيرُوت، المكتَب الإسلَاميُّ، ١٩٧٠م.

١٣. صَحيحُ مُسلِم: أَبو الحُسَين مُسلِمُ بنُ الحجَّاج القُشَيريُّ النَّيسابوريُّ (٢٦١هـ)،

تَح: فُؤاد عَبد البَاقي، بيرُوت، دار إحيَاء التراُّث العَربيِّ، د.ت.

١٤. عُمدَة القارِي شَرح صَحيح البُخَاري: بدرُ الدِّين محمُودُ بنُ أحمدَ العَيني (٨٥٥هـ)، بيرُوت، دار إحيَاء التراُّث العربيِّ، د.ت.

١٥. فَتحُ البَاري: أَبو الفَضل أَحمدُ بنُ عليٍّ بنُ حجَر العَسقلَانيُّ (٨٥٢هـ)، تَح: فؤاد عبد الباقي ومحبُّ الدِّين الخَطيب، بيرُوت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ

١٦. فَيضُ القَدير: عَبد الرَّؤوف المنَاوي (١٠٣١هـ)، مِصر، المكتبةُ التِّجاريةُ الكُبرى، ١٣٥٦هـ.

١٧. كَشفُ الخفَاء: إسمَاعيلُ بنُ محمَّد العَجلونيُّ الجراحيُّ (١١٦٢م)، تَح: أحمَد القَلاَّش، بيرُوت، مُؤسَّسة الرِّسالَة، ١٤٠٥هـ.

١٨. مجمَعُ الزَّوائد ومَنبعُ الفَوائد: عليُّ بنُ أَبي بكر الهيثميُّ (٨٠٧ هـ)، القاهرَة وبيرُوت، دار الرَّيان ودار الكتَاب العربيِّ، ١٤٠٧هـ.

١٩. المُستدرَك علَى الصَّحيحَين: أَبو عَبد الله محمَّد بنُ عبد الله الحاكمُ النَّيسابوريُّ (٤٠٥هـ)، تَح: مُصطَفى عطَا، بيرُوت، دار الكتُب العِلميَّة، ١٩٩٠م

٢٠. مُسنَد أَبي يَعلَى: أَبو يَعلَى أَحمدُ بنُ عليٍّ المَوصليُّ (٣٠٧هـ)، تَح: حُسَين سَليم أَسَد، دمَشق، دار المأمُون للتراُّث، ١٩٨٤م.

٢١. مُسنَد أَحمد: أَبو عَبد الله أَحمدُ بنُ حنبَل الشَّيباني (٢٤١هـ)، مِصر، مؤسَّسة قُرطُبة، د.ت.

٢٢. مُسنَد الشِّهَاب القضَاعي: أَبو عَبد الله محمَّدُ بنُ سلَامةَ القضَاعي (٤٥٤هـ)، تَح: حَمدي عَبد المَجيد، بيرُوت، مُؤسَّسة الرِّسالَة، ١٩٨٦م.

٢٣. مُسنَد الفِردَوس بمَأثُور الخطَاب: أَبو شُجاع شيرَويه بن شهرَدار؛ إلكيا الدَّيلميُّ (٥٠٩هـ)، تَح: السَّعيد بَسيُوني زَغلُول، بيرُوت، دار الكتُب العِلميَّة، ١٩٨٦م.

٢٤. المُصنَّف في الأَحاديثِ والآثَار: أَبو بكر عَبدُ الله بنُ محمَّد بنُ أبي شَيبة الكُوفيُّ

(٢٣٥هـ)، تَح: كمال الحُوت، الرِّياض، مكتبة الرُّشد، ١٤٠٩هـ.

٢٥. المُعجَمُ الأَوسَط: أَبو القَاسم سُلَيمانُ بنُ أحمَد الطَّبرانيُّ (٣٦٠هـ)، تَح: طَارِق عَوض الله وعَبد المُحسن إبرَاهيم، القاهرَة، دار الحرَمين، ١٤١٥م.

٢٦. المُعجَمُ الكَبير: أَبو القَاسم سُلَيمانُ بنُ أحمَد الطَّبرانيُّ (٣٦٠هـ)، تَح: حَمدي عبدالمَجيد، الموصِل، مكتبةُ الزَّهراء، ١٩٨٣م.

٢٧. النُّخبة البهيَّة: لمحمَّد الأمير الكَبير المالكي (١٢٢٨هـ)، تَح: زُهَير الشَّاويش، بيرُوت، المكتَب الإسلَاميُّ، ١٩٨٨م.

**كتبٌ أخرَى:**

١. الاستيعَابُ في مَعرِفَة الأَصحَاب: يوسُفُ بنُ عبدِ الله؛ ابنُ عَبدِ البَر (٤٦٣هـ)، تَح: عَلي محمَّد البجَاوي، بيرُوت، دار الجيل، ١٤١٢هـ.

٢. الاعتصَامُ: أَبو إسحَاق إبراهيمُ بنُ مُوسَى اللَّخميُّ الشَّاطبيُّ (٧٩٠هـ)، تَقدِيم: محمَّد رَشيد رِضَا، الرِّياض، مكتبَةُ الرياض الحديثَة، د.ت.

٣. أَعلَامُ النبوَّة: أَبو الحسَن عليُّ بنُ محمَّد الماوَرديُّ الشَّافعيُّ (٤٥٠هـ)، تَح: محمَّد المُعتصِم بالله البغدَاديُّ، بيرُوت، دار الكتَاب العربيِّ، ١٩٨٧م.

٤. الأَوائِلُ: أَبو هِلال الحسَنُ بنُ عبدِ اللهِ العَسكَريِّ (٣٩٥هـ)، طنطا، دار البَشير، ١٤٠٨هـ.

٥. البدَايةُ والنِّهايَة: أَبو الفِدَاء إسمَاعيل بنُ عَمرو بنِ كَثير الدِّمشقيُّ (٧٧٤هـ)، بيرُوت، مكتبَة المعَارِف، د.ت.

٦. تَاريخُ الأُمم والمُلُوك: أَبو جَعفَر محمَّدُ بنُ جَرير الطَّبريُّ (٣١٠هـ)، بيرُوت، دار الكتُب العِلميَّة، د.ت.

٧. جيران في عالَم واحدٍ: ترجمة مجموعةٍ من المترجمينَ، سلسلة عالَم المعرِفة، الكُويت، رقم (٢٠١)، ١٩٩٥م.

٨. الخصَائِصُ الكُبرى: جلالُ الدِّين عبدُ الرَّحمن بنُ أَبي بكر السُّيوطيُّ (٩١١هـ)، بيرُوت، دار الكتُب العِلميَّة، ١٩٨٥م.

٩. خُلاصَةُ الأَثر في أَعيَانِ القَرنِ الحادي عشَر: محمَّد أَمينُ بنُ فَضلِ اللهِ المُحبِّي الحنَفِيُّ الدِّمَشقيُّ (١١١١هـ)، بيرُوت، دار صَادِر، د.ت.

١٠. دلَائلُ النبوَّة: أَبو بكر أَحمدُ بنُ الحُسين البَيهقيُّ (٤٥٨هـ)، تَح: عبد المُعطِي قلعَه جِي، بيروت، دار الكُتب العلميَّة ودار الريَّان، ١٩٨٨م.

١١. رَسَائلُ ابنِ حَزم: أَبو محمَّد عليٌّ ابنُ حَزم الظَّاهريُّ الأندلُسيُّ (٤٥٦هـ)، تَح: إحسَان عبَّاس، بيرُوت ، المؤسَّسة العَربيَّة للدِّراسَات، ١٩٨٣م.

١٢. الرُّوح: أَبو عَبدِ الله محمَّدُ بنُ أَبي بكر؛ ابنُ قيِّم الجَوزيَّة (٧٥١هـ)، القاهرَة، مكتبة المتنبِّي، ١٩٧٧م.

١٣. شَذَراتُ الذَّهب: عَبدُ الحيِّ بنُ أَحمدَ بنِ محمَّد؛ ابنُ العِمادِ الحنبَليِّ (١٠٨٩هـ)، تَح: عَبد القَادِر أَرناؤوط، دمَشق، دار ابنِ كَثير، ١٤٠٦هـ.

١٤. صُبحُ الأَعشَى: أَحمد بن علي بن أحمد الفزاري القَلقشَنْدي (٨٢١هـ)، تَح: عَبد القَادِر زَكَّار، دمَشق، مَنشُورات وزارة الثَّقافة، ١٩٨١م.

١٥. الصِّحاحُ: أَبو نَصر إسمَاعيلُ بنُ حمَّاد الجوهَريُّ (٣٩٣هـ)، تَح: إميل بَديع يَعقُوب ومحمَّد طَريفِي، بيرُوت، دار الكتُب العِلميَّة، ١٩٩٤م.

١٦. الطَّبقاتُ الكُبرى : أَبو عَبدِ الله محمَّدُ بنُ سَعدٍ بنِ مَنيعٍ البَصريُّ الزُّهريُّ (٢٣٠هـ)، بيرُوت، دار صَادِر، ١٩٥٧م.

١٧. عَودةُ الوفَاقِ بينَ الإنسَانِ والطَّبيعَة: جان مَاري بيلت، تَرجمَة: السيِّد محمَّد عُثمان، الكُوَيت، سِلسلَة عَالَم المعرِفَة، عدد (١٨٩)، ١٩٩٤م.

١٨. العَينُ: أَبو عبدِ الرَّحمَن الخليلُ بنُ أَحمد الفرَاهيدي (١٧٠هـ)، تَح: مَهدي المَخزُومي وإبرَاهيم السَّامرَّائي، بيرُوت، دار وَمكتبة الهلَال، د.ت.

١٩. الفَلسَفةُ البيئيَّة: تَحرير: مَايكل زيمرمَان، تَرجمَة: مُعين شَفيق رُوميَّة، الكُوَيت، سِلسلَة عَالَم المعرِفَة، عدَد (٣٣٢)، ٢٠٠٦م.

٢٠. لسَانُ العرَب: أَبو الفَضل محمَّدٌ بنُ مكرَم الأنصَاريُّ؛ ابنُ مَنظُور (٧١١هـ)، بيرُوت، دار صَادِر، ١٩٥٦م.

٢١. لَطائفُ المعَارِف: أَبو مَنصُور عبدُ الملِك بنُ محمَّد الثَّعالبيُّ النَّيسابوريُّ (٤٣٠هـ)، تَح: محمَّد إبراهيم سَليم، بيرُوت، دار الطَّلائِع، ١٩٩٢م.

٢٢. مُجتمَعُ المعرِفَة واستيعَابُ المعرِفَة: نَادر فَرجَاني، نَشر: برنَامج الأُمم المُتَّحدَة الإنمَائي والصُّندوق، ٢٠٠٢م.

٢٣. المعَارِفُ: أَبو محمَّد عَبدُ الله بنُ مُسلِم بنِ قُتَيبةَ الدِّينوري (٢٧٦هـ)، تَح: د. ثروَت عُكَاشَة، القاهرَة، دار المعَارِف، د.ت.

٢٤. مُعجَم الصَّحابَة: أَبو الحُسَين عبدُ الله بنُ قانع (٣٥١هـ)، تَح: صلاح المصرَاتي، المدينَة المنوَّرة، مكتبةُ الغُرباء الأثريَّة، ١٤١٨ه

٢٥. مُعجَمُ مقَاييس اللُّغَة: أَبو الحسَين أَحمدُ بنُ فارس بنِ زكريَّا (٣٩٥هـ)، تَح: عَبد السَّلام هَارُون، بيرُوت، دار الجِيل، ط٢، ١٩٩٩م.

٢٦. مِفتَاحُ دارِ السَّعادة: أَبو عَبد الله محمَّد بنُ أَبي بكر؛ ابنُ قيِّم الجَوزيَّة الزَّرعي الدِّمَشقي (٧٥١هـ)، بيرُوت، دار الكُتُب العِلميَّة، د.ت.

٢٧. الموافقاتُ في أُصولِ الشرَّيعَة: أَبو إسحَاق إبراهيمُ بنُ مُوسَى اللَّخميُّ الشَّاطبيُّ الغرناطيُّ (٧٩٠هـ)، القاهرَة، مطبَعة صبَيح، ١٩٦٩م.

٢٨. مَوسُوعة علم الإنسَان؛ المفاهِيمُ والمُصطلحَاتُ الأنثروبُولُوجيَّة: شارلُوت سيمُور- سميث، القاهِرَة، المجلِسُ الأعلَى للثَّقَافَة، عدَد(٦١)، د.ت.

٢٩. مَوسُوعَة الفلسَفة: د. عبد الرَّحمن بَدوي، بيروت، المؤسَّسة العربيَّة للدِّراساتِ والنَّشر، ١٩٩٦م.

٣٠. نَهجُ البلَاغة: جمعُ: الشريَّف الرَّضي محمَّدُ بنُ الحُسَين (٤٠٦هـ )، شَرح: محمَّد عَبده، بيرُوت، الكتُب العِلميَّة،١٩٩٨م.